الإقطاع
وأوربا في العصور الوسطى



تأليف

دكتور احمد ابراهيم الشعراوى

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية البنات — جامعة عين شمس

القاهرة ١٩٧٠

المطبعة العالمية ١٦، ١٧ ش ضريح سعد بالقاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بدأ عصر الإقطاع بأوربا مع بداية تفكك وانهيار الإمبراطورية الكارولنجية عقب وفاة شارلمان ثم ابنه لويس التقى ، إذ استقل كل نبيل أو كونت أو ماركيز أو بارون . . . . الخ بما تحت يده من أراضي واعتبرها ملكا خالصاً له يتصرف فيه دون الرجوع للسلطة المركزية فى العاصمة الإمبراطورية .

ومن ناحية أخرى فإن الناس الذين كانوا يعيشون داخل هذه الأراضى وجدوا أنفسهم فى حاجة إلى أن يتمركزوا أو يلتفوا حول شخص أو سلطة عليا تقدم لهم الحماية حتى يستطيعوا أن يزاولوا حياتهم اليومية وأعمالهم وهم آمنين على أنفسهم ، وهكذا تضافر هذان العاملان — افتقار الناس إلى الحماية وتطلع السيد أو الحاكم المحلى إلى الاستقلال — وبدأ عصر الإقطاع الذى تمثل فى تقديم الخدمات للحاكم من جانب الشعب فى نظير أن يقدم لهم الحاكم الحماية .

فالإقطاع أو النظام الإقطاعى إذن هو نظام سياسى واجتماعى واقتصادى أوجدته الحاجة وفرضته الظروف فى غرب أوربا ، وكان هذا النظام يتناسب وحاجات الناس فى تلك العصور .

وكان لا بد لهذا النظام لكى يسير فى طريق سوى من وجود قانون يحدد وينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وقد وجد هذا القانون بالفعل فى صورة عرف وعادات وتقاليد العصور الوسطى التى تحكمت إلى أقصى حد فى هذا النظام وفى حياة الناس .

ولكن هل وجد هذا النظام طفرة واحدة ؟

الواقع أن هذا النظام لم يوجد فجأة وإنما يرجع إلى أصول وجذور تاريخية بعيدة وتتمثل هذه الأصول فى :

١ ـ الأصول الرومانية : وهى مجموعة القوانين والعادات والعرف والتقاليد التى كانت تسير دفة الحياة فى الإمبراطورية الرومانية القديمة .

٢ ـ الأصول الجرمانية : وهى نفس الشيء مأخوذاً عن القبائل الجرمانية المختلفة التى أقامت داخل أراضى الإمبراطورية الرومانية ، وكانت أحد أسباب انهيارها . وبمرور الوقت اتحدت الأصول الرومانية والجرمانية لتخرجا لنا نظاماً وقانوناً موحداً ألا وهو النظام والقانون الإقطاعى الوسيط الذى ازدهر نتيجة حاجة الناس إلى مثل هذا النظام والذى كان يتناسب وحياتهم واحتياجاتهم وطرق معيشتهم فى تلك العصور .

وللنظام الإقطاعى جوانب ثلاث رئيسية بحكم كونه المهيمن على حياة الناس فى أوربا فى العصور الوسطى :

١ ـ جانب سياسى : ويتمثل فى الطريقة التى كان يسير بها هذا النظام ، والعلاقة التى تربط بين كل من السيد والتابع ، وحقوق وواجبات كل منهما إزاء الآخر . ولا ننسى فى هذا الصدد ما يعرف باسم « السلم الإقطاعى » وهى رابطة التسلسل فى الطبقات الاجتماعية المختلفة داخل هذا النظام من أعلاها ، أى من الملك أو الإمبراطور ، إلى أدناها أى إلى طبقة الأقنان .

٢ ـ جانب اجتماعى : ويتمثل فى كل ما يتصل بالحياة الاجتماعية فى أوربا فى تلك العصور وعلى رأسها « نظام الفروسية » ، هذا النظام الذى بدأ حربياً أولاً ثم تطور ليوجد ما عرف باسم « الفرسية الاجتماعية » والتى ينضوى تحتها كل ما يتصل بإيمان الفارس وقانون الفروسية ومستوى الحياة ومركز المرأة فى هذه الحياة وما يتصل بها من شعر الغزل وملاحم المآثر وشعراء التروبادور بصفة عامة مما أوجد نشاطاً ثقافياً واجتماعياً ضخماً كان له أثر سياسى واقتصادى على الحياة فى أوربا فى تلك العصور .

٣ ـ جانب اقتصادى : ويتعلق بالجانبين السابقين وما يتفرع منهما مثل نظام الضياع والعزب والكفور والقرى ثم تطور التعامل الاقتصادى من

التبادل إلى نظام النقد وما أدى إليه من وجود المدن وبالتالى إلى نهضة ثقافية شاملة قامت بها داخل تلك المدن الكاتدرائيات التى تطورت إلى الجامعات فيما بعد .

من هذا كله ، بالإضافة إلى اهتمامنا بالناحية السياسية فى الموضوع وتطورها يمكننا أن نقسم المراحل التى مر بها النظام الإقطاعى إلى ثلاث مراحل رئيسية :

١ ـ مرحلة نمو وتطور الاقطاع : وهى مرحلة بدايته ، ويدخل فيها أصول هذا النظام وتعريفه .

٢ ـ مرحلة ازدهار النظام الاقطاعى : وهى بطبيعة الحال أطول المراحل من حيث الحقبة الزمنية وما مر فيها من أحداث سياسية وبحكم ما وقع فيها أيضاً من تطورات اجتماعية واقتصادية وقضائية ودينية .

ويجب أن نلاحظ أنه فى خلال هذه المرحلة بدأت فى نفس الوقت تظهر لنا بصورة خفية بعض العوامل التى ستؤدى إلى انهيار هذا النظام فيما بعد .

٣ ـ مرحلة انهيار النظام الاقطاعى : وهى مرحلة النهاية وسيكون أساسها وسببها المباشر ظهور القوميات الأوربية الحديثة وتفتح أذهان الناس وعقولهم إلى مفاهيم جديدة ستؤدى إلى تغيير نظام حياتهم ، وبالتالى نظام الحكم من أساسه .

والآن وقبل أن نتناول هذا كله فى شىء من الإيضاح والتفصيل علينا أن نلقى نظرة فاحصة وشاملة على أحوال أوربا فى تلك العصور ليتسنى لنا تفهم الموضوع من شتى جوانبه .

نظرة عامة

على الأحوال السياسية لأوربا في العصور الوسطى

تحتل فترة العصور الوسطى حقبة زمنية تزيد عن الألف عام بصفة عامة. وقد أطلق المؤرخون الأوربيون مصطلح العصور الوسطى على السنوات التى تفصل بين انهيار المدنية الرومانية وبين ما تراءى لهم من فجر مدنية العصر الحديث ، ونظراً لأنهم اهتموا أساساً بتاريخ شمال غربى أوربا — انجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا — فقد اتخذوا تبعاً لذلك التواريخ الفاصلة بين العصور المختلفة.

والمعروف أن العصور الوسطى امتدت منـــذ خلع روميلوس أجسطلوس ، آخر الأباطرة الرومان عن العرش سنة ٤٧٦ ، إلى حوالى سنة ١٥٠٠ م ، إذ اعتبر هؤلاء المؤرخون النهضة الأوربية بدء العصر الحديث ، واعتبروا القرن الرابع عشر بداية لها فى إيطاليا ، وجعلوا انتشارها فى غرب أوربا فى السنوات السابقة على سنة ١٥٠٠ والسنوات اللاحقة لها فكأن العصور الوسطى بمعناها الأصلى شملت حقبة زمنية بلغت فى شمال غربى أوربا حوالى ألف سنة بينما جرى تقديرها فى إيطاليا بنحو ٨٥٠ سنة فقط ، وهكذا تختلف هذه الحقبة الزمنية فى تحديدها الدقيق من بلد إلى بلد حسب الظروف التى مرت بها كل منطقة على حدة.

والواقع أن مدنية العصور الوسطى لم تمس من حوض البحر المتوسط إلا إيطاليا وجنوب فرنسا والجزء الشرقى من إسبانيا. وعلى الرغم من الأهمية الاقتصادية والحضارية لهذه الأقاليم فى العصور الوسطى فإنها لم تكن بالغة الأهمية من الناحية السياسية. ذلك أن مركز القوة والسلطان فى العصور الوسطى إنما وقع فى الشمال فى بيئة شديدة الاختلاف . فالإقليم

الذى يقع شمال الأراضى المنخفضة التى تحف بالبحر المتوسط كاد يغطيه بأسره الغابات الشاسعة . واشتهر بوفرة المياه اللازمة للرى ، واعتدال المناخ صيفاً والبرودة شتاء وبخصوبة تربته . ولجأ السكان فى عصور ما قبل التاريخ إلى أن يزيلوا الغابات فى بعض الجهات لكى يقيموا لأنفسهم قرى ينزلون بها ويتخذوا لهم حقولا ، وبمضى الزمن ازدادت المحلات والمساكن غير أن الغابات لم تختف نهائياً ، إذ أن المناخ الرطب يساعد على سرعة نموها من جديد إذا غادر الناس مواطنهم . والخلاصة أنه وجدت مساحات شاسعة من الأراضى الصالحة للزراعة وإن كانت تحتاج إلى أساليب تختلف عن تلك التى تجرى فى إقليم البحر المتوسط .

وهذه المنطقة من شمال أوربا تمثل إقليما شاسعاً يمتد من الشاطىء الغربى لإيرلندا حتى الحدود الحالية للشعوب الصقلبية ، ومن بحر الشمال وبحر البلطيق إلى البحر المتوسط . وكان هذا الإقليم حتى القرن الرابع قبل الميلاد خاضعاً للكلتيين الذين ينتمون للجنس الألبى وتعتبر القبيلة هى الوحدة السياسية عندهم ، وعاش الكلتيون على الفلاحة وتربية الماشية .

ثم خضع الكلتيون لعنصر جديد وهم التيوتون أو الجرمان الذين طردوا الكلتيين من منطقة ألمانيا الحالية واحتلوا الإقليم الواقع عند مصب نهر الراين وشرق انجلترا زمن يوليوس قيصر ، ثم أوقفت الجيوش الرومانية زحفهم جنوباً وغرباً مدة أربعة قرون .

ولما أخذت الإمبراطورية الرومانية فى التداعى فى القرنين الرابع والخامس شرع الجرمان فى التحرك من جديد فاحتلوا شمال غالة ووادى نهر الرون الأعلى ، والساءون ، ووادى نهر البو (بشمال إيطاليا) فضلا عن انجلترا .

وعلى الرغم من أن المغيرين من الجرمان المحاربين حكموا فترات طويلة

فى وسط إيطاليا وجنوبها ، وجنوب فرنسا ، وإسبانيا ، وشمال إفريقية ، فإنهم لم يبلغوا من كثرة العدد ما يؤدى إلى تأثير جوهرى فى تركيب السكان والنظم السياسية بتلك الأقاليم . على أنه ما كاد ينتهى القرن السادس الميلادى حتى أضحى شمال غربى أوربا أرضاً جرمانية . ولم يبق من الحضارة الكلتية إلا آثار ضئيلة فى اسكتلندة وويلز وإيرلندة وبريطانيا .

ويتبين من الوضع فى غرب أوربا سنة ٨٠٠ م أن مركز القوة انتقل من إقليم البحر المتوسط إلى الشمال ، وتحول من يد الرومان إلى الجرمان ، إذ تم فى تلك السنة تتويج شارلمان فى روما على أنه إمبراطور رومانى حكم إيطاليا وغالة وشطراً من شمال إسبانيا . وحاول أن يحمل الإمبراطور البيزنطى على أن يعترف به إمبراطوراً على العالم الرومانى . ومع ذلك فإن شارلمان لم يكن أصلا إلا ملكا جرمانياً يحكم دولة جرمانية ، ويقع مركز سلطانه فى الأقاليم الواقعة على ضفتى الجزء الأدنى من نهر الراين ، واتخذ مدينة آخن عاصمة له . وأكثر من ذلك أن سلطته فى إيطاليا إنما استندت إلى استحواذه على تاج جرمانى ، وفرضه السيادة على شعب جرمانى وهم اللمبارديون .

ويقع فى خارج أمبراطورية شارلمان مجموعتان هامتان من الشعوب الجرمانية ، وهما الإنجليز السكسون فى انجلترا ، والسكنديناويون بالدنمارك والنرويج والسويد . ويقع وراء هذه الإمبراطورية من جهة الغرب بقايا المدنية الكلتية . وإلى الجنوب من مملكة شارلمان تقع أملاك الدولة الإسلامية ، إذ شمل حكم المسلمين كل أراضى إسبانيا تقريباً عدا بعض الأراضى فى أقصى الشمال ، وكذا ثغر برشلونة الذى استولى عليه شارلمان كما بسط المسلمون سلطانهم أيضاً على شمال إفريقية وشنوا هجمات بحرية عنيفة على الجزائر الواقعة فى غرب البحر المتوسط ، وامتدت غارات المسلمين حتى بلغت سواحل جنوب فرنسا .

واتصلت الامبراطورية الكارولنجية بأملاك الصقالبة فى الجهات الواقعة إلى الشرق والممتدة من بحر البلطيق إلى نهر الدانوب . وعلى الرغم من أن شارلمان قام بحملات حربية عديدة إلى ما وراء نهر الألب ونهر السال اللذين يؤلفان الطرف الشرقى للأراضى الجرمانية ، فالواقع أن هذه الحملات لم تكن فى جوهرها إلا حملات تأديبية إذ لم يحاول شارلمان أن يحتل الإقليم الذى أغار عليه .

وشهد القرن التاسع الميلادى ما قام فى غرب أوربا من إمارات مسيحية شملت الامبراطورية الكارولنجية وانجلترا الأنجلوسكسونية والبلاد الكلتية وكلها أصبحت فريسة للمغيرين من غير المسيحيين ، فخرج من اسكنديناوه آخر هجرة جرمانية كبيرة فأخذ الفيكنج يغيرون بحراً على سواحل غرب أوربا وينهبونها وبالتدريج أخذوا يتوغلون إلى داخل البلاد . فالأراضى المنخفضة وغرب فرنسا والجزائر البريطانية تعرضت لما أحدثه الفيكنج من التخريب الشامل . وإذ تهيأت للفيكنج الأحوال للإستيلاء على إقليم من الأقاليم جاء من بلادهم فى أعقابهم فلاحون لزراعة الأراضى الجديدة والاستقرار بها .

وما كاد القرن التاسع الميلادى ينتهى حتى صار للفيكنج سلسلة من الإمارات امتدت من نوفجورود إلى البحر الأسود واتصلت هذه الإمارات تجارياً بالقسطنطينية وترتب على ذلك أن تحولت إلى المسيحية بفضل المبشرين البيزنطيين ، فأضحت بذلك تؤلف جانباً من مدنية شرق أوربا .

وإذ أثار الفيكنج الاضطراب بشمال أوربا المسيحية أخذ سلطان المسلمين يمتد ويتسع فى الجنوب . ففى أثناء القرن التاسع استولوا على جزائر البليار وصقلية ، وسردينيا ، وكورسيكا ، وأغاروا على جنوب إيطاليا بل حاصروا روما ذاتها .

على أن ما تعرضت له أوربا المسيحية من هجمات لم تلبث أن توقفت فى

القرنين العاشر والحادى عشر . ومع ذلك فقد ازدادت حالة أوربا سوءاً وخاصة من الناحية الاقتصادية إذ حل الخراب بالعمائر التى تقع حول الكاتدرائيات والأديرة ، وتناقص عددالسكان، وخربت الأراضى الزراعية وتحولت إلى غابات أو إلى مراعى. ثم أخذ المجتمع ينهض بالتدريج بعد ذلك ، فعلى الرغم من أن جذور حضارة العصور الوسطى امتدت فى أعماق الماضى إلا أنها نبتت وأينعت أثناء القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر . وظهر النظام الإقطاعى فى فرنسا ، وساد بانجلترا وإيطاليا وألمانيا ، وأيضاً بالأراضى المقدسة التى استولى عليها الصليبيون فى فلسطين . على أن الترتيب الزمنى اختلف باختلاف البلاد .

والخلاصة أن غرب أوربا كان إقليما مترابطاً توافرت به الخصوبة والمياه وساعده مناخه وثراء تربته إلى جانب التجانس بين سكانه الذين ارتبطوا بالحضارة الرومانية المسيحية وبالمذهب الكاثوليكى وباللغة اللاتينية ، على جعل الإقليم كله يشترك فى تراث واحد ومشاكل واحدة .



الاقطاع

تعريفه ونشأته

فى أثناء العصور الوسطى بأوربا تعتبر القلعة والضيعة والقرية والمدينة مراكز الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وللناس الذين يعيشون بكل من هذه المواضع نظمهم الخاصة التى تتلاءم واحتياجاتهم وظروف معيشتهم والمنطقة التى يقيمون بها. وقد استخدم المؤرخون مصطلح «النظام الإقطاعى» للدلالة على النظم السائدة بكل مركز من مراكز الحياة السالف الإشارة إليها.

وقد عرف بعض المؤرخين النظام الإقطاعى بأنه «صورة من المجتمع توافر به من الخصائص ما يجعل تعريفه وتحديده أمراً سهلا يسيراً». وهذه الخصائص والمظاهر يصح تلخيصها فيما يأتى: نمو التبعية الشخصية وتطورها فى المجتمع وما كان لفئة حربية خاصة من مكانة رفيعة فى المجتمع، والأنواع المختلفة للحقوق التى على الأرض وارتباطها بالتبعية الشخصية، وانقسام السلطة السياسية بين جماعة من الأفراد يمارسون السلطات والوظائف التى كانت تمارسها الحكومة، فانتقلت إليهم بعد تداعى الدولة وانهيارها. وهذا النوع من المجتمع هو الذى ساد غرب أوربا منذ القرن التاسع الميلادى وحتى نهاية القرن الثالث عشر.

وأما البعض الآخر من المؤرخين الذين حاولوا أن يكونوا أكثر تحديداً وأن يضعوا تعريفاً فقهياً وقانونياً للنظام الإقطاعى، فقد عرفوه بأنه «عبارة عن طائفة من النظم فرضت على الرجل الحر الولاء أو التبعية والخدمة، ولا سيما الخدمة الحربية، يؤديها لرجل حر آخر هو السيد الذى يلتزم بحماية تابعه والإنفاق عليه، وتطلب ذلك منه أن يبذل له قطعة أرض اتخذت اسم إقطاع».

وأما الأستاذ كوبلاند فيعرفه بأنه « تجربة عملية فرضتها الحوادث على المجتمع الإنسانى عامة، والمجتمع الأوربى خاصة ، لتستعيض بها عن الحكومة المركزية البعيدة عن متناول الجماعات ، ابتغاء الحصول على قسط من الأمن ، وهو الذى من أجله عملت الجماعات وكدت وبذلت فى سبيله ما بذلت منذ فجر التاريخ »[١] .

ولا شك أن هذا التعريف الواضح البسيط للأستاذ كوبلاند يتفق مع ما قدمنا مع مراعاة الظروف والأحوال السياسية التى مر بها غرب أوربا والتى مهدت لنشأة النظام الإقطاعى الذى غدا أصلح نظام يتفق وحاجة الناس فى ذلك الحين . وعلى ذلك فيمكننا استخلاص تعريف واضح وسهل للنظام الإقطاعى ، على ضوء ما تقدم ، فنقول إنه :

« نظام سياسى واجتماعى واقتصادى أوجدته الحاجة وفرضته الظروف فى غرب أوربا ، وكان هذا النظام يتناسب وحاجات الناس فى تلك العصور » .

وكيفما كان الأمر ، فالعناصر الجوهرية للنظام الإقطاعى تتمثل فى : السيد ، والتابع ، والإقطاع . والتابع يرتبط بالسيد بعلاقة شخصية وثيقة ، ويحلف له يمين الإخلاص ويبذل له الولاء ، وهو فى نظير ذلك يحصل من السيد على إقطاع من الإقطاعات أى أنه يستغل شيئاً ذا فائدة ونفع ، هو عادة عبارة عن قطعة أرض . وفى هذا تفسير واضح لما أوجزه الأستاذ فينوجرادوف بقوله إن « أركان العقد الإقطاعى هى يمين الولاء والتقليد »[٢].

وقد اقترن بدء العلاقة بين السيد والتابع بإجراء طقوس خاصة كأن يركع التابع أمام السيد ويجعل يديه بين يدى السيد ثم يحلف يمين الإخلاص .

(١) راجع موسوعة كمبردج فى تاريخ العصور الوسطى ، قاموس تاريخ أسبانيا جـ ١ ص ١١٤٤ وما يليها . وانظر أيضاً : كوبلاند ؛ وفينوجرادوف : الإقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا ص ٤ .

(٢) كوبلاند : ص ٦٤ .

فإذا جرى بذل الإقطاع منحه السيد عادة ما يرمز إلى ذلك كأن يقدم له شيئاً من تراب الأرض .

وقد استغرقت عملية النمو الإقطاعى فترة القرنين التاسع والعاشر على أقل تقدير وقد سبقتها ولا شك مقدمات مهدت لظهور هذا النظام وكان أهمها حركة التطور نحو المحلية ، وكذا نظم الحكومة الكارولنجية . فهذه الحكومة لم تستطع أن تؤثر فى حركة التطور نحو المحلية بأكثر من أنها أوقفت تيارها دون أن تستطيع إيقافها هى ذاتها ، ومن الأدلة الواضحة على ذلك :

١ — أن شارلمان حول الكثير من السلطة المركزية لنوابه الإقليميين ولمرؤوسيهم .

٢ — اعتياد الأباطرة والملوك الكارولنجيين تقسيم الملك بين أولادهم من بعدهم .

٣ — منح براءات الإعفاء التى جعلت أراضى أصحابها بمنأى من تدخل عمال القضاء والشئون المالية من موظفى الدولة .

٤ — نظام إرسال المبعوثين الملكيين Missi Dominici فقد دل هذا النظام على ضعف السلطة المركزية . وإن قصد به إظهار قوتها .

٥ — عجز الدولة عقب وفاة شارلمان عن صد غارات الشماليين وغيرهم .

أما عملية نضج هذا النظام الإقطاعى فنستطيع القول بأنها شغلت الفترة التالية وهى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، إذ ازداد ضعف سلطة الحكومة المركزية وتزايدت سلطة السادة المحليين . وهكذا قامت بين السيد والتابع علاقة على أساس تعهدات مشتركة والتزامات متبادلة ، وأصبحت هذه العلاقة هى القاعدة السائدة .

وخلاصة القول « أن نظاماً وسطاً بين اللاحكومة ، والحكومة الملكية المركزية بدا فى الظهور دون أن يكون هذا النوع أو ذاك ، على حين ظل النظام الملكى ماثلا من بعيد مثول طيف الخيال » . وأصبح الحال على حد قول المؤرخ الفرنسي جيرار فى وصف الإقطاع : « أن الأرض أساس المجتمع الإقطاعى ، فمن تملك أرضاً صارت له أحقية فى السلطة والحكم بحسب ما بيده من الأرض سواء أكانت هذه الأرض قطعة صغيرة أم كبيرة»[١] .

أصول الإقطاع

(١) الأصول الجرمانية :

يصح أن نلتمس النظام الإقطاعى فى العصور الوسطى فى مملكة الفرنجة الميروفنجيين ، لا سيما فى قلب المملكة ، أى فى غالة : بين نهر اللوار ونهر الراين . والواقع أن غالة زمن الميروفنجيين طفحت بالفوضى والاضطراب ولعل السبب الأساسى لهذه الفوضى يرجع إلى ماوقع من العداوات بين الأسرات الحاكمة ، والتى نبعت من العرف الذى يقضى بأن يقتسم الإرث أولاد الملك عند وفاته ، فنشأت بذلك ممالك : أو ستراسيا ، نويستريا ، برجنديا . يضاف إلى هذا العامل ما حدث من المنازعات بين الفئات الأرستقراطية فى الأقاليم من أجل السلطة والنفوذ . وزاد الأمر سوءاً أن الحكومة لم يكن بوسعها أن توطد الأمن والسلام ، وتكفل الطمأنينة للسكان نظراً لأن النظام الادارى كان بسيطاً وساذجاً ، ولم يكن الموظفون كثيرى العدد ولم يكن لهم من الدراية والخبرة بأعمال الحكومة ما يصح معه الاطمئنان إليهم . وهذا المجتمع يعتبر خير وسط وأحسن بيئة تنمو بها فئات الأتباع ، ولا سيما الأتباع المسلحون. فأولئك الذين استشعروا الضعف وأحسوا بالحاجة إلى الحماية سعوا إلى التماسها عند جيرانهم الأقوياء مقابل

---

(١) انظر : كوبلاند وفينوجرادوف، المرجع السابق ص ٢١ .

تأدية نوع من الخدمة . ومن ناحية أخرى حرص كبار الملاك ، إما رغبة منهم فى أن يشاركوا فى الأمور السياسية ، أو الإفادة من الفوضى السياسية فى توطيد سلطانهم وزيادة ثروتهم على أن يتخذوا لهم أتباعا لتحقيق أغراضهم ، ويصح أن يمدوهم بالسلاح .

وعلى أى حال فإن العرف جرى على أن يجعل الرجل الحر نفسه تحت حماية شخص آخر وفى خدمته ، وهكذا وجد الأتباع فى النظام الإقطاعى .

ونظام الأتباع الذى وجد عند الألمان ظل معروفاً فى القرون التالية عندالقوط والفرنجة واللومبارديين والانجليز السكسون، وكذا عند الفيكنج .

وهذه الرابطة الشخصية التى قامت بين السادة وأتباعهم ظلت قائمة بين الغزاة الجرمان الذين استولوا على أملاك الدولة الرومانية وكانت ذات قيمة لهم ولأتباعهم . فإذا أصبح المحارب الحر الذى يرى فى حمل السلاح ذاته مظهراً من مظاهر التشريف ، تابعاً لأحد السادة فإنه يفعل ذلك من تلقاء نفسه وعن طيب خاطر ، ويتطلع إلى أن يبذل له السيد من سبل المعيشة ما يتفق مع مكانته . ولا يجد التابع فى ذلك امتهاناً لكرامته ، وليس ملزماً بأن يرتبط بالسيد مدى الحياة فيصبح أن تنقطع الصلة باتفاق الطرفين . على أن الفتى الذى يلحق بجماعة من أجل المغامرة والخبرة والتجربة ، يأمل عادة فى أن يكون له أتباع Comitatus (Gefolgschaft) هو الآخر فى يوم من الأيام ، فمن الطبيعى أن كل رجل تتوافر لديه الثروة والشهرة يجذب إليه الرفاق.

(ب) الأصول الرومانية :

كان نظام الأتباع معروفاً أيضاً عند الرومان ، وإن اختلف فى بعض النواحى عن نظام الأتباع أو الرفاق عند الجرمان . وكان النظام الرومانى يتخذ إسم Clientele أى (التبعية) ، فإذا أطلق الرومانى للعبد حريته جرت العادة بأن يظل الشخص المعتق من موالى سيده وأتباعه . وهذه العلاقة

يصح أن نلمسها فى العصر المتأخر للإمبراطورية الرومانية إذ أن احتراف الجندية لم يلق من التقدير ما يلقاه النبلاء والأشراف لأن معظم الرعايا الرومان ظلوا زمناً طويلا يتجنبون الخدمة العسكرية فكانت الفرق الرومانية تتألف أساساً من المتبربرين (أى من غير الرومان) . ولجأ كبار الأعيان من الرومان إلى أن يتخذوا لأنفسهم حرساً من المأجورين الذين ينتمون إلى أصل وضيع أو كانوا من الأرقاء . ووفقاً للعرف يصح للعبد المعتق ان يكون من أتباع أحد سراة الرومان بمقتضى اتفاق يقضى بأن يرعاه هذا الرومانى ، فاعتمد التابع أساساً على السيد فى حياته ، وفى مقابل ما يناله من المنح المالية والمؤونة والثياب يشترك فى المناسبات العامة مع حاشية السيد . على أن التبعية التى لم تنطو على خدمة عسكرية تختلف عن نظام الرفاق المعروف عند الجرمان ، وهذا الاختلاف ظل قائماً على الرغم من انتشار النظام الرومانى بين الفرنجة الذين غزوا غالة .

(ح) اندماج الأصول الجرمانية والرومانية :

جنح نظام الأتباع أو الرفاق المعروف عند الجرمان ، ونظام التبعية المعروف عند الرومان إلى أن يندمجا سوياً فى نظام واحد مع مرور الوقت . وهذا الاندماج يتمثل فى المحاربين الجرمان الذين اتخذهم الأعيان الرومان . فإذا كان السيد الرومانى يعتبر جنده المأجورة أتباعاً محاربين، فالراجح أن الجرمان لم يعتبروا أنفسهم سوى فئة الأتباع المعروفة عند الجرمان .

ويتبين من كل ذلك ما كان من العلاقة بين السيد والتابع فى النظم الجرمانية ، والرومانية ، والرومانية الجرمانية .

المراحل التى مر بها النظام الإقطاعى

كما قدمنا ، تنقسم هذه المراحل إلى ثلاث أقسام رئيسية سنتناولها هنا فى شيء من التفصيل ، ولكننا قبل ذلك يجب أن نذكر ونستلفت الأنظار

إلى وجوب وضرورة ملاحظة الجوانب المختلفة للحياة فى العصور الوسطى وخاصة الجانب السياسى والجانب الاجتماعى ، والجانب الاقتصادى فى النظام الإقطاعى من خلال عرضنا لأحداث وتفاصيل كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث .

أولا — مرحلة نمو وتطور الإقطاع

الاقطاع والتبعية :

لما كانت الزراعة هى المظهر الأساسى للنشاط الاقتصادى ، وتعتبر أهم مصادر الثروة فى هذا المجتمع ، كان من الخير أن يبذل للتابع من الأرض مايكفل معاشه . وليس لدينا من الأدلة ما يثبت أن الجرمان الأوائل عرفوا من أنواع حيازة الأراضى سوى الملكية البسيطة ، ولم يرد فى وثائق العصر الميروفنجى ما يدل على أن التابع حاز الأرض على أنها ملك خاص والراجح أن ما بذله السيد للتابع من الأرض كان على سبيل الاستغلال والانتفاع منها لمـــدة طويلة وجعل له الإشراف المباشر على الأرض . وانتشر هذا النوع من الحيازة فى مملكة الفرنجة مثلما انتشر فى الإمبراطورية الرومانية فى أواخر عهدها .

والواقع أن الرومان عرفوا أنواعاً مختلفة من الانتفاع بالأرض وحيازتها: فهناك الضياع الكبيرة Villas التى تقسم إلى أجزاء صغيرة أو قطع صغيرة من الأرض Precairium ولم يزرعها أصحابها بأنفسهم بل تولى زراعتها الفلاحون أو العبيد الذين يستغلونها لصالحهم مقابل دفع خراج معين ، وتأدية بعض الأعمال. وهناك نوع آخر يعرف باسم Beneficium وهذه لا يرتبط بها عادة تأدية عمل من الأعمال إنما يؤدى حائزها خراجاً معتدلا بل إنه لا يؤدى فى بعض الأحوال خراجاً مطلقاً ، فالمالك يمنح لسبب من الأسباب قطعة

أرض لشخص من الأشخاص دون مقابل ، وهى تعطى عادة لأجل معين ، وأحياناً لمدى الحياة . وكانت هذه الأرض تمنح بما اشتملت عليه من المبانى والأدوات الزراعية والحيوانات ، فضلا عن الفلاحين والأرقاء .

وهذان النوعان من الانتفاع بالأراضى عرفهما الجرمان الذين استقروا بأملاك الامبراطورية الرومانية ، وقد توسعت الكنيسة فى غالة الميروفنجية فى بذل هذه المنح لكى تحصل على الرجال اللازمين لزراعة أراضيها فكأن فكرة قيام الرجال الأحرار باستغلال الأراضى عرفها العالم الرومانى الجرمانى على الأقل فى القرن السابع .

أما الإقطاع الحربى Benefice of the Vassal فهو ما بذل فى مقابل خدمة عسكرية . وليس من الواضح تماماً إذا كان هذا النوع من الإقطاع قد ظهر قبل القرن الثامن الميلادى ، وكيفما كان الأمر فالكارولنجيون هم الذين حولوا هذه الصورة من الحيازة إلى نظام فرنجى عام . فالمعروف أن جيش الفرنجة القديم كان يتألف فى معظمه من المشاة ، أى من الرجال الأحرار الذين ينهضون بأسلحتهم للقتال دون أن يتقاضوا أجراً . ولما صار شارل مارتل دوقاً على الفرنجة واشتدت حاجته إلى قوة حربية فتية تطلع إلى المحارب الفارس المجهز لمهنة القتال . ولم يكن ليجد ضالته فى رجل ينتزع قوت يومه من الزراعة . ولما لم يتوافر لشارل مارتل المال اللازم لإنشاء جيش قوى أو للحصول على جند مأجورة ، لم يسعه إلا أن يمنح الأرض للجند ، ويوفر لهم الوسائل اللازمة لاستغلالها فالمقصود بالإقطاع الحربى هو أن يقدم للتابع مكافأة مقابل ما يؤديه من خدمة خاصة ونظراً لأن الكنيسة القومية امتلكت مساحات كبيرة من الأراضى يتولى زراعتها مستأجرون أرغمها شارل مارتل على أن تمنح أراضيها إقطاعات لجنده الذين حلفوا له يمين الإخلاص وبذلوا له الولاء ،

ووعدوا بأن يخدموه طوال حياته[1] .

وقد أطلق شارل مارتل على هؤلاء الجند الذين حازوا الإقطاعات مقابل الخدمة ، اسم « أتباع السيد Vassi Dominici » وكلمة « تابع » كانت سائدة فى غالة الميروفنجية قبل عهد شارل مارتل ، وإن كان يقصد بها عادة شخص وضيع المكانة . والواقع أنه حدث تغير كبير بعد ذلك وحتى عهد شارلمان ، ففى السنوات الأخيرة من حكم ببين الثانى لم يكن منح الضياع للأتباع لاستغلالها إلا أمراً طارئاً . ولما ولى شارلمان الحكم لم يختلف الملك عن سائر أفراد الطبقة الحاكمة من الدوقات والكونتات وكبار الملاك والأعيان والأساقفة ورؤساء الأديرة فى منح الضياع للأتباع .

وعلى الرغم من أنه ليس من الضرورى وجود ارتباط بين الأرض والتبعية فإن اتحادهما صار أمراً شائعاً ، بل إنه بالتدريج تم إندماج التبعية فى الإقطاع . وبذلك توافر لدينا العناصر الأساسية التى تألف منها النظام الإقطاعى . وأسهمت عوامل عديدة فى نمو التبعية وانتشارها زمن شارلمان وخلفائه ، وأول هذه العوامل ما جرى عليه الكارولنجيون من اتخاذ سياسة الإكثار من عدد الأتباع لكى يوطدوا سلطتهم ، وفرضوا على الموظفين الذين بخدمتهم أمثال الكونتات وحكام الأطراف والدوقات واجب الدخول فى تبعية الملك فالتزم الموظفون بحكم مناصبهم بأن يبذلوا للملك الولاء والطاعة على النحو الذى يلتزم به السيد للتابع . وهذه السياسة نفسها اتبعها ، بتشجيع رئيس الدولة ، كبار الموظفين إزاء الموظفين الذين يلونهم فى الرتبة . . . وهكذا . فالنظام الإقطاعى فى الإمبراطورية الكارولنجية والبلاد التى انتقل إليها خارج هذه الإمبراطورية ، قام على الارتباط الوثيق بين التبعية وحيازة الأرض . ويتضح هذا الارتباط الوثيق بين

---

(١) انظر Ganshof : Feudalism, p. 17.

التبعية والإقطاع فى العلاقات الإقطاعية التى سادت زمن شارلمان وخلفائه ومن الدليل على هذه الصلة ما حدث سنة ٨٢٧م من النتائج التى ترتبت على تنصيب شارل الإبن الأكبر للويس التقى ملكا أثناء حياة أبيه ، على الإقليم الواقع بين فريزيا ونهر السين ، بأن صار ينتمى إليــه كل الأساقفة والكونتات وأتباع الملك الذين حصلوا على إقطاعات بهذه الجهات ، وتحتم عليهم أن يقسموا له يمين الإخلاص .

ومن الروابط القانونية بين التبعية والإقطاع ما يشير إليه القانون الذى أصدره سنة ٨١٥م الإمبراطور لويس التقى عن اللاجئين الإسبان الذين تقرر قبولهم فى سبتمانيا والطرف الإسبانى ، إذ جعل لهم الإمبراطور الحق فى الالتجاء إلى حماية الكونتات الذين يحكمون بهذه الجهات. فإذا حصلوا منهم على إقطاعات ألتزموا بأن يؤدوا الأتباع فى أراضى الفرنجة إلى سادتهم عن إقطاعات مماثلة .

وما هو معروف من أن الإقطاع لا ينتهى أجله إلا بوفاة التابع أو السيد أو حين يصبح السيد ملكا ، إنما يدل أيضاً على الصلة بين التبعية والإقطاع .

ومنذ أواخر عهد شارلمان تعتبر الخدمة المطلوبة من التابع السبب المباشر لمنح الإقطاع فإذا أغفل التابع ما هو مقدر عليه من الخدمة أو لم يؤدها على الوجه السليم ، اختفى المبرر الذى بمقتضاه يجرى بذل الإقطاع ، بل يجوز عندئذ استرداده من التابع .

وتعتبر مصادرة الإقطاع أهم عقوبة توقع على التابع الذى لم يف بالتزامات التبعية .

المجتمع الاقطاعى :

من المعروف أنه منذ وفاة شارلمان وحتى قيام أسرة كابيه فى الحكم سنة

٩٨٧ تعرضت البلاد لأخطار واضطرابات فى الداخل والخارج وطفحت البلاد بالفوضى لمدى قرن ونصف من الزمان ، وفى هذه البيئة أخذت النظم الإقطاعية تشق طريقها وأخذ المجتمع الإقطاعى ينمو فى سرعة وسهولة ، وانتشر نظام « أتباع الملك » الذين أخذوا يمنحون بعض أراضيهم إلى فئات من الرجال الأحرار الذين أصبحوا بدورهم أتباعاً لأتباع الملك ويليهم أتباع أتباع الأتباع . . . وهكذا وجدت سلسلة من الأتباع يعبر عنها فى الكتب التى تعالج هذا الموضوع باسم « السلم الإقطاعى » أو « الهرم الإقطاعى » .

وقد اعتبر رجال القانون فى العصور الوسطى أن للقطعة الواحدة من الأرض مالكين اثنين : متبوع وتابعه ، أو سيد وتابع ، وللأول حق الملكية المباشرة Dominium Directum ، وللثانى حق الملكية الإنتفاعية Dominium Utile أى حق استغلال الأرض. ومع ذلك فمن الناحية الإقطاعية يمكن تقسيم الإقطاع الواحد إلى إقطاعات صغيرة بين إقطاعيين ثانويين Under—Tenants وهؤلاء يصبحون بدورهم أتباعاً للتابع الذى أخذ الإقطاع من سيد أعلى ، بشرط ألا تخل هذه العملية بواجبات هذا التابع الوسيط نحو السيد الأعلى .

وعلى أى حال فمن الواضح خلال العصور الوسطى أن الأصل فى عملية التمليك هو التمليك الإقطاعى ، ومع أنه كان هو الأساس المألوف فى توزيع الأرض فإن لم يكن الأساس الوحيد إذ بقيت فى فرنسا وألمانيا بقايا كثيرة من الملكية الحرة . أى الملكية المطلقة الخالية من أى شرط من شروط الخدمة أو الإيجار ، ولو أن هذه الملكية أخذت تقل بالتدريج .

فتدل وثائق العصور الوسطى على ازدياد عملية التملك الإقطاعى على حساب الملكية الحرة ، فإذا استشعر أحد صغار الملاك ضرورة لحماية أحد السادة كان عليه فى تلك الحالة أن يلجىء أرضه لذلك السيد أى يتنازل

عنها له ثم يستعيدها منه إقطاعاً . وهذه العملية التى عبر عنها الأستاذ فينو جرادوف «بالإلجاء الإقطاعى » وأورد فى ذلك قصة ننقلها عنه هنا لدلالتها فى إيضاح هذه العملية وخلاصتها : « أنه فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى امتلك أخوان هما : هرد Harred وها كت Hacket امتلاكا حراً ضياعاً واسعة فى إقليم بوبرانج ، واضطهدهما جاران إقطاعيان قويان هما : كونت دى جين ، وكونت دى بولونى ، وحاول كل من هذين الجارين أن يفرض سيادة على هذه الضياع . ورغبة فى وضع حد لهذه الاضطهادات نزل الأخ الأكبر وهو هرد عن أرضه لأسقف مدينة تيروان ثم تسلمها منه إقطاعاً وراثياً ، على حين سلك الأخ الأصغر ها كت سبيلا مشابهاً فيما يتعلق بأملاكه مع كونت دى بولونى » .

ثم يعلق فينو جرادوف بقوله : « ولم يكن باستطاعة كل من الأخين إلا أن يلجىء أرضه ليستردها على هذا النحو الإقطاعى لأن الشخص الذى لم يرتبط برابطة الإقطاعية تعرض لأخطار واضحة كل الوضوح »(١) .

وهكذا التمس صغار الملاك حماية من هم أكبر منهم شأناً للدفاع عن أنفسهم بينما استطاع كبار الملاك أن يتخذوا لأنفسهم جنداً بفضل ما بذلوه من إقطاعات للمحاربين الأشداء .

أما أتباع غير هؤلاء من السادة فيصح أن يكونوا من فئات اجتماعية شديدة الاختلاف بل يجوز أن نجد بينهم أرقاء أو أقناناً ، ورجالا لم يكونوا أصلا أحراراً(٢) .

والواقع أن ظروف الحياة فى العصور الوسطى وتطور النظم الإقطاعية ونموها منذ القرنين التاسع والعاشر أدى آخر الأمر إلى ظهور

---

(١) أنظر : الإقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا صفحة ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) أنظر : Stephenson : Medieval Feudalism, pp. 17-18.

صورة جديدة فى المجتمع الإقطاعى ، ألا وهى صورة التابع الذى يبذل ولاءه لأكثر من سيد واحد ، أو بمعنى آخر ظهر تعدد التبعية إذ كان من المستحيل على التابع أن يزيد من ثروته إلا بالحصول على إقطاعات جديدة متعددة . ولما كانت التبعية قد وصلت فى تطورها إلى اعتبارها مجرد إجراء قانونى شكلى فقد أخذ التابع يبذل ولاءه لسادة عديدين حسبما يحصل عليه من إقطاعات . والنتيجة الطبيعية لذلك ما حدث فى القرن الثانى عشر من التفرقة بين الولاء للسيد ، والتبعيةالعادية . فالنوع الأول لا يبذل إلا للسيد الأول ويحدد التزامات التابع نحو سيده . أما النوع الثانى فيصح أن يبذل لسادة عديدين للوفاء بما تطلبه إقطاعه من التزامات . وعلى الرغم من تعقد الروابط السياسية والاقتصادية ، فإن جانباً كبيراً من نظام التبعية القديم استمر حتى أواخر العصور الوسطى .

وعلى أى الأحوال فيجب أن نلاحظ ونحن بصدد الحديث عن المجتمع الإقطاعى أنه من الصعوبة بمكان وصف هذا المجتمع وصفاً دقيقاً أو القطع فى أى من الأمور التى تتصل به إذ لم توجد حكومة إقطاعية نموذجية فى دولة من الدول إطلاقاً فى العصور الوسطى . وأن كل ما لدينا لا يعدو جملة من الأمثلة العملية الدالة على خصائص الحكم الإقطاعى نفسه فقد بدأ فى ألوان مختلفة باختلاف الأحوال والظروف والبلاد التى نشأ فيها . فلم يوجد فى العصر الإقطاعى دولة ذات نساج محكم إذ يجب مراعاة ظروف العصر حيث لا طرق ممهدة تربط بين أجزاء الدولة الواحدة ، ولا أمة ، ولا قومية ، ولا جيش قومى متجانس ولا ثروة عامة ، ولا تقدم على يذكر ، وكل ما كان لا يعدو فقط مجموعة من العادات والتقاليد ألفتها واطمأنت إليها عقول أهل العصر . وإننا لنلاحظ مثلا اختلافاً فى العملة والمقاييس والمكاييل من منطقة إلى منطقة وحتى داخل البلد الواحد ، وهذا إلى جانب صعوبة الاتصال وتبليغ وتنفيذ الأحكام ، ولذلك فإن

العرف والعادات والتقاليد هى التى سادت تلك العصور وهى التى سيطرت وكانت بمثابة قانون لهذا المجتمع الإقطاعى .

وننتقل الآن للحديث عن أركان المجتمع الإقطاعى التى تمثل حجر الزاوية فى هذا النظام ، وهى : القرية ، والضيعة أو الدومين .

١ ـ القرية : الواقع أن غرب أوربا خضع لأسلوبين من أساليب الاستقرار والسكن هما القرى والكفور ، وقام نظام القرى فى الإقليم الذى ساد فيه العنصر الجرمانى ، بينما استقر سكان البحر المتوسط فى الكفور .

وساد نظام القرى أخصب الأقاليم الزراعية التى تعتبر المراكز الأساسية للسلطة السياسية ، ويعتبر جانب كبير من أوربا أرض كفور .

ولكل قرية من الحقول الصالحة للزراعة حقلان أو ثلاثة حقول تجرى زراعتها دورياً . فى القرية التى بها حقلان تصير زراعة أحد الحقلين ويبقى الحقل الثانى بوراً . وإذا كان بها ثلاثة حقول جرت زراعة أحدها بمحصول الربيع ، وبقى الثالث بوراً . ومن الأدلة ما يثبت أن جميع القرى استخدمت أصلا نظام الحقلين ، ولم يكن نظام الحقول الثلاثة إلا مظهراً من مظاهر التطور حدث فى بقاع شديدة الخصوبة .

وإلى جانب ما تمتلكه القرية من أراضى صالحة للزراعة ، كان بها أيضاً أراضى جرداء تكاد تكون عديمة الجدوى ، وبها أيضاً المراعى ، وهى أراضى جيدة التربة كثيرة المياه تقع بالقرب من الأنهار ، ويجود بها العشب ، ثم أراضى الكلأ ، والغابات .

وأراضى الحقول القابلة للزراعة تقسم إلى قطع طويلة قليلة الاتساع ، والراجح أنه كان يتم توزيعها بالاقتراع دفعة واحدة كل سنة . ومن الأدلة ما يشير إلى أن هذه الأراضى بأنواعها ارتبطت دائماً بالمساكن (المحلات)

فكل مسكن تألف من كوخ فى القرية ، وحديقة مسورة ، وربما كان بها بعض أشجار الفاكهة ، وقدر متساو من الأرض فى كل حقل ، فضلا عن حق المشاركة فى الإفادة من الأرض البور والكلأ والمراعى والغابات . ويبلغ زمام المحلات العادية نحو ثلاثين فداناً من الأرض فى الحقول الصالحة للزراعة .

وأداة الزراعة الأساسية عبارة عن المحراث الثقيل الذى يستطيع أن يقلب الأرض ثقيلة التربة التى اشتهرت بها شمال أوربا . وهذا المحراث كان يجره أول الأمر ثمانى ثيران ، ثم حدث فى القرن الثانى عشر أن صار يجره أربعة ثيران . ومن أهم مشاكل الزراعة فى العصور الوسطى توفير العلف للثيران صيفاً وشتاء .

والمعروف أن القرية ظلت حتى القرن الثانى عشر تكفى نفسها اقتصادياً إذ أنبتت طعامها وشرابها ، وقام نساء القرية بصناعة الملابس من الصوف الناتج من الأغنام .

أما الصناع الذين لا غنى عنهم أمثال الحدادين والطحانين فإنهم كانوا من أهل القرية ، ولم يمارسوا تلك الحرف إلا شطراً من وقتهم وتستطيع القرية أن تعيش دون أن تبادل سلعها مع العالم الذى يقع وراء حدودها . وعلى الرغم من أنه جاز أن يتم تبادل المنتجات عن طريق المقايضة ، فالواقع أن هذه المقايضة كانت تجرى فيما يزيد عن حاجة السكان من المواد ، كأن تجرى مقايضة الخنازير فى قرية بالدجاج المتوافر فى قرية أخرى :

وما ينبغى ملاحظته هو أن القرية لم تكن أكثر من مجموعة أكواخ تحيط بها أراضى زراعية ، ومراع ، وأرض كلأ ، وأراضى بور ، وغابات ويشترك أهل القرية فى زراعة الأرض فيقررون متى تجرى الزراعة ومتى

يتم الحصاد ومتى يجنى المحصول وأى المحصولات يصح زراعتها وماذا يستعمل من البذور . واختص بعض القرويين بأعمال معينة ، ويشرف على تنفيذ القرارات هيئة تنفيذية . وبالقرية ملاحظ يشرف على المراعى وقطعان الماشية والخنازير ، ويلاحظ الحيوانات فى الكلأ . وبالقرية دائماً نوع من المحكمة القروية تقوم بتسوية المنازعات حول المساكن وإنزال العقوبة بالذين لم يؤدوا أعمالهم .

وتعتبر القرية أيضاً وحدة اجتماعية ودينية فللقرويين أعيادهم واحتفالاتهم ويتزوج الأبناء والبنات فى نطاق المجتمع القروى. وحينما نما نظام الأبروشية القروية فى القرنين التاسع والعاشر ، أضحت للقرية عادة كنيستها وقسيسها وتألف جماعة من كبار رجال القرية للنظر فى أمور الكنيسة . فالقرية أضحت هى الوحدة الأساسية فى الحياة الريفية فى العصور الوسطى .

ومعظم السكان الذين عاشوا فى القرية فى القرن الحادى عشر لم يكونوا أحراراً فلم يستطع القروى أن يغادر أرض سيده إلا بعد موافقته ، وليس من حقه أن يقتنى متاعاً شخصياً فكل ما يملكه يعتبر ملكا للسيد ، ولا يستطيع أن يتزوج من توابع وحواشى سيد آخر . وللسيد أن يزيد فيما يستحقه من الخدمات والإيجارات على أهل القرية كلما رأى فى ذلك مصلحة له . غير أن ساكن القرية لم يكن رقيقاً بالمعنى المعروف فلا يستطيع السيد أن يبيعه ، ولا أن يطرده إلا إذا أعطاه ما يملكه من مسكن . وليس فى استطاعة السيد قانوناً أن يضربه أو ينزل به عقوبة بدنية ، وظهر هذا الفارق واضحاً فى انجلترا . وليس فى استطاعة القروى غير الحر أن يرفع دعوى مدنية ضد سيده ، وليس له عليه حقوق ملكية ، غير أنه يستطيع أن يرفع إلى محاكم الملك ما يوجهه إلى السيد من تهمة جنائية . وليس للتابع حقوق اقتصادية لدى السيد . ولما كان للعرف والعادة أهمية كبيرة فى العصور

الوسطى فإن معظم السادة تقاضوا من الخدمات ما كان لأسلافهم ، بل إنه كان لهم الحق فى زيادتها . ومع ذلك فأهل القرية يعتبرون قوة لمساندة السيد فى العمل ، ولم يكن للأرض فائدة إلا بفضل جهود سكان القرية .

هكذا كان مجتمع القرية ، وهو كما نلاحظ مجتمعاً طبقى البنيان ارتبط أساساً بالأرض ، ونستطيع أن نقسمه إلى طبقات رئيسية ثلاث هى : طبقة الأقنان أو كما يسمون أحياناً طبقة الفلاحين القراريين أو الفلاحين غير الأحرار ، ثم طبقة المزارعين الأحرار ، وأخيراً طبقة موظفى السيد وخدمه أو أعوان السيد الإقطاعى .

(١) الأقنان : أطلق المؤرخون المعاصرون مصطلحات مختلفة على القروى غير الحر وهذه المصطلحات اختلفت فى معناها من إقليم إلى إقليم . ولعل أكثر الألفاظ شيوعاً لفظ قن Serf الذى لم يقصد به إلا القروى ، والذى أطلق فى فرنسا على الشخص غير الحر . أما فى انجلترا فقد كان لفظ فلاح Villein يطلق على المستأجر غير الحر . والواقع أنه لم يكن هناك سوى فرق ضئيل بين مكانة الفلاح الانجليزى والقن الفرنسى .

ومن المستحيل أن نقوم بإحصاء عدد الأحرار وغير الأحرار من العمال الزراعيين فى أوائل العصور الوسطى . ولم يكن الفلاحون فى المناطق الزراعية بفرنسا فيما يبدو أحراراً فى القرن الحادى عشر . وعلى الرغم من أن عملية تحول القرويين الأحرار إلى أقنان ظهرت فى ألمانيا فى عصر متأخر فإنها كانت كاملة .

وعلى أى الأحوال فإن الخدمات الزراعية هى التى قررت الأحوال الشخصية لأى فرد . والقن أو العبد كان هو قاعدة السلم الإقطاعى أو الهرم الإقطاعى ، وكان هو المستقل بالأعباء ، عليه تقع كل الواجبات ، وليس له إلا ماندر من الحقوق ، فمن الناحية المدنية ليس له أية حقوق على سيده .

ومن الطريف أنه كان يدفع لسيده غرامة عند زواج ابنته على قاعدة أنها من أملاك السيد فى أرضه ، وتزاد هذه الغرامة إذا كان زواجها خارج أرض السيد ، لأن السيد يفقد من أملاكه بهذا الزواج إمرأة وما سوف تأتى به من نسل .

وعند وفاة القن لا يستطيع وريثه أن يحل محله فى الأرض إلا إذا قدم للسيد فرسا أو ثوراً قوياً اعترافاً بما للسيد من حق فى المنقولات الزراعية الخاصة بالأرض .

على أن التمييز الاجتماعى بين الطبقة الحربية والطبقة الزراعية العاملة ، بالإضافة إلى الزراعة الاكتفائية التى استغنت عن التبادل التجارى والمعاملات المالية إلى درجة كبيرة أدى فى جميع بلاد أوربا الغربية إلى خضوع الأقنان ، وبناء ضياع السيد الإقطاعى على أكتاف الطبقة الزراعية العاملة[1] .

(ب) المزارعون الأحرار : هذه الطبقة كانت تشكل كثرة واضحة بالقرية فى العصور الوسطى . بل الواقع أنه يصعب تصور قرية بدون رجال أحرار وأصحاب حيازات حرة ، ففضلا عن الفرسان والجنود الذين أخذوا إقطاعات من السيد نسير الخدمة الحربية ، عاشت فئة كبيرة من المزارعين بموجب اتفاق معين ودفعت إيجارات ثابتة ، أو أدت خدمات معينة ، وهى خدمات مهما تكن مرهقة ، لم تبلغ من الإرهاق مبلغ الخدمات الزراعية المفروضة وجوبا بصفة عامة على الأقنان .

والواقع أن كثرة من المزارعين عاشوا فى القرية دون أن يحتاجوا إلى الاستناد إلى عهد مكتوب أو اتفاق معين لإثبات علاقتهم التعاقدية بالسيد الإقطاعى وتناقلوا الأرض بالميراث كأن إتفاقاً معيناً قائماً بينهم وبين السيد ، وأدوا خدمات وإيجارات معينة . وهذه الفئة هى أهم فئات المجتمع

(١) أنظر وراجع قاموس تاريخ إسبانيا ج ١ ص ١١٤٨ .

القروى إطلاقا وأفردها هم المزارعون الأحرار . ويجب فى هذا الصدد أن نلاحظ أنهم لم يكونوا أحراراً بمعنى أنهم يستطيعون استغلال أراضيهم حسب مشيئاتهم أو يديرون أراضيهم الزراعية ومراعيهم كل منهم وفق حاجته ، أو يستخدمون فلا حين مستقلين ، إذ الواقع أنهم تعرضوا لدفع الغرامات المالية وإيقاع الحجز على ماشيتهم وعقارهم وأرضهم إن هم خالفوا القوانين التى اصطلح عليها المجتمع .

وقد ظهرت هذه الطبقة بصورة واضحة فى انجلترا وزاد عددهم فى الأراضى التى تنمو بها الكروم والجهات الجبلية . ولم يكن معظم هؤلاء الأحرار إلا أتباعاً يدفعون لسادتهم الخراج ويلتزمون فى أحوال كثيرة بأن يؤدوا لهم خدمات معينة . وخضع هؤلاء الأحرار لقضاء السيد المحلى الذى استمد سلطته من الملك . أما التابع الذى فى خدمة الفارس والمقطع النبيل فلا يحاكمهما إلا أسوياؤهما من الأتباع فى محكمة السيد .

(ح) أعوان السيد الاقطاعى : وهذه الطبقة من موظفى السيد وخدمه اشتملت على عدد غير قليل من المعاونين والوكلاء للإشراف العام ورياسة محاكم القرية وإدارة الحسابات وتمثيل السيد فى كل المناسبات ، كما اشتملت على مشرفين عملهم التوفيق بين القرويين والسيد ، وعليهم تنظيم جميع الخدمات الزراعية . هذا فضلا عن النقباء الذين عليهم تسليم مختلف التعليمات وتبليغها ، ومختلف الحراس . وهؤلاء جميعاً حظوا ولا شك باهتمام خاص سواء من جانب السيد أو من جانب سكان القرية ، وبالتالى فقد كان لهم مكانة اجتماعية مرموقة كما تمتعوا بالكثير من المزايا .

٢ ـ الضيعة : جرى نظام الضياع فى معظم إقليم القرى على نهج عام مألوف إذ احتفظ السيد بشطر من الأرض فى الحقول الصالحة للزراعة . وهذا الجانب الذى يبلغ عادة نحو ثلث مجموع الأراضى الزراعية ، اشتهر باسم الضيعة . والضيعة مؤسسة إنجليزية خاصة بانجلترا ، على أنها تستطيع

أن تكون قاعدة لتوضيح نواحى المجتمع الأوربى الغربى عامة ، لأن الإقطاعية وما اشتملت عليه من زراعة اكتفائية ، وسيطرة الطبقة الحربية ، وتركيز السلطات والحقوق فى مراكز محلية ، كل هذه ظواهر وضحت فى جميع أرجاء أوربا ، وأدت فى فرنسا وألمانيا وإسبانيا إلى نتائج متشابهة وإن لم تكن متماثلة .

وبجانب الضيعة فقد احتفظ السيد لنفسه أيضاً بجانب من أرض المراعى.

وتولى أهل القرية العمل فى الضيعة من أجل السيد فقاموا ببذر التقاوى وزراعة الأراضى ، وجنى المحصول ، وقطع الدريس ، وأدوا كل ما هو ضرورى من سائر الأعمال ، فأشرف الرعاة بالقرية على ما لدى السيد من ماشية وخنازير وإذا أراد السيد أن يقوم بحفر خندق حول قلعته ، أو تشييد سور لحفظ الغزلان فى جانب من أرض الغابات التزم أهل القرية بالقيام بهذا العمل .

والخلاصة أنهم جعلوا ثلاثة أيام فى الأسبوع لخدمة السيد ، غير أنه يجوز للسيد أن يحتاج لخدماتهم مدة تزيد على ذلك .

ويؤدى أهل القرية للسيد من الإيجار ما هو عبارة عن نسبة معينة من المحصولات التى يزرعونها بأراضيهم الخاصة . يضاف إلى ذلك أنهم مدينون له بطائفة متنوعة من الرسوم مقابل ما استخدموه من موارد أراضى القرية. ففى مقابل رعى ماشيتهم أدوا للسيد الجبن ، وفى مقابل السماح لخنازيرهم بالانسياب فى الغابات قدموا له عدداً معيناً منها ، وإذا اصطاد أهل القرية السمك من غدير أو مستنقع حصل السيد على جانب من صيدهم . . وهكذا .

كما يقوم أهل القرية مقابل سكنهم بالعمل فى ضياع السيد ويؤدون طائفة متنوعة من المقررات المختلفة مقابل ما حصلوا عليه من امتيازات .

ثم أضحى للسيد بعض الاحتكارات المثمرة . . فالسيد يمتلك عادة

طاحوناً وتحتم على أهل القرية أن يطحنوا به حبوبهم . ومن الجرائم الخطيرة امتلاك طاحون من غير إذن السيد . ويتقاضى السيد مقابل الطحن جانباً من الدقيق . وللسيد أيضاً حق الإشراف على الأفران التى يصنع بها الخبز ويتقاضى عن ذلك أجرة . والسيد وحده هو الذى قام بتربية الحمام فى معظم أنحاء فرنسا ، ويقتات الحمام على محصولات الفلاح على حين أن السيد وحده هو الذى يأكله .

وللسيد أيضاً محكمة يتقرر بها إنزال العقوبة بكل من يخالف قوانين القرية . وإذا حاول رجل أن يغفل العمل المكلف بتأديته للسيد . فإذا أهمل الراعى الخنازير ، أو إذا سرق القروى تفاحاً من حديقة السيد أو إذا جرى ضبط شخص يستخدم طاحوناً يدوياً ، تقررت محاكمته فى محكمة السيد ، وحل به العقاب . وكانت محكمة السيد تنظر فى جميع أنواع الجرائم .

وفى هذا الصدد يجب أن نذكر أنه خلال العصور الوسطى نشأت ثلاثة أنواع رئيسية من المحاكم ، وهى :

١ — محكمة العرف والعادة . ٢ — محكمة السيد الإقطاعى .
٣ — محكمة الشئون الملكية . ولكل من هذه المحاكم اختصاصاتها حسب نوع الجريمة ومكانة مرتكبها الاجتماعية . وللولاية القضائية أهمية من عدة نواحى ، منها أنها مثمرة ومربحة ، ففى القضايا الصغرى تقرر فرض جزاءات نقدية ، وإذا تقرر شنق رجل ، استولى السيد على كل موجوده ومتاعه ، فازدادت بذلك سلطة السيد على رعاياه ، وارتفع شأنه ، خاصة وأنه كان يقف حائلا بين أهل القرية أو الضيعة وبين الحكومة المركزية .

والواقع أن السيد عاش كأنه ملك فى إقطاعه ، لكنه ملك مقيد بدستور عرفى وحقوق قائمة على اتفاق تعاقدى . ومن الخطأ أن نزعم أن مصالح الكثرة وحقوقها كانت تهدر فى سبيل مصالح الأقلية الحاكمة وحقوقها ،

أو أن نتصور أن الضيعة لم تكن سوى أرض تزرع وتستغل من أجل السيد الإقطاعى وتدار وفق رغبته ورغبة أعوانه . والواقع أن الضيعة هيأت أقرب التنظيمات وأكثرها ملاءمة للعمل والكسب فى تلك الأزمنة .

ومن أوضح الحقائق الثابتة فى الحياة الاقتصادية فى الضيعة الإقطاعية هو ازدواج الجهاز المحرك لها ، إن صح هذا التعبير . ذلك أن الضيعة تكونت من مجتمع قروى له حكومة ذاتية ، ومن إدارة إقطاعية مفروضة فرضاً على هذا المجتمع القروى . وقد هدفت الزراعة الاكتفائية الإقطاعية دائماً لتحقيق غايتين متلازمتين ، وهما : إمداد المجتمع القروى بأسباب العيش ، وإمداد السيد الإقطاعى بأنواع الربح . ومن هنا تطلب تحقيق هاتين الغايتين هذا الازدواج ، أى المجتمع القروى والإدارة الإقطاعية .

ثانياً : مرحلة ازدهار النظام الإقطاعى

لم يكن نمو وتحديد حقوق وواجبات السادة والأتباع إلا عملية طويلة بطيئة استغرقت ما يزيد على ستة قرون ، ابتداء من القرن الخامس حتى القرن الثالث عشر . ويصح أن نعتبر الفترة الممتدة من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر هى الفترة التى اكتمل فيها نمو النظم الإقطاعية وتطورها ففى أثناء هذه الفترة شاعت النظم الإقطاعية فى أوربا وانتقل النظام الإقطاعى عن طريق الحروب الصليبية إلى مملكة بيت المقدس والإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية .

حقوق وواجبات كل من السيد والتابع

يقوم العقد الإقطاعى أساساً ، كما قدمنا ، على ركنين أساسيين هما : يمين الولاء من جانب التابع ، والتقليد أو بذل الإقطاع من جانب السيد . ومن هذه القاعدة تفرع كل ما يتصل بحقوق وواجبات كل من السيد والتابع إزاء بعضهما البعض ، فالسيد أيضاً يتعهد بالإخلاص لتابعه مثلما يتعهد التابع بذلك لسيده . وقد أوجز لنا الأستاذ فينو جرادوف واجبات التابع نحو سيده بأن قسمها إلى : « الواجبات السالبة : أن يتعهد التابع ألا يشن غارة على سيده أو يفشى له سراً أو يعرض قصوره لخطر أو يسىء إلى سلطته القضائية أو شرفه أو أملاكه أو يقيم عقبات تعرقل أو تفسد طريق أعماله .

أما من الناحية الإيجابية : فتعين على التابع تقديم واجبات النصح والمساعدة Consilium, Auxilium لسيده الإقطاعى . والصورة الأساسية لتقديم النصيحة هى حضور التابع محكمة السيد الإقطاعى »[1].

---

(١) راجع : فينوجرادوف ، المرجع السابق ص ٩١ .

والعقد الإقطاعى كانت له قدسية خاصة فهو يقوم باختيار الطرفين ، ومتى ثم فلا يصح نقضه من جانب واحد إذا جرى تنفيذه فعلا[1] إلا فى بعض الحالات الاستثنائية مثل تلك التى أوردها شارلمان فى أحد مرسوماته والتى تبيح للتابع أن يتخلى عن سيده وتتلخص فى أنه يجوز له ذلك فى الحالات الآتية :

١ — إذا حاول أن يقتل التابع بالتآمر عليه .

٢ — إذا حاول أن يضربه بعصا .

٣ — إذا حاول اغتصاب زوجته ، أو ارتكب الفاحشة معها .

٤ — إذا حاول اغتصاب ابنة التابع.

٥ — إذا حاول أن يجعل منه قناً .

٦ — إذا انقض عليه وأشهر سيفه فى وجهه .

٧ — إذا لم يدافع عنه كما ينبغى .

كذلك وجد ما عرف « بحق الإنكار » أى أن يخرج التابع عن طاعة سيده فى حالة إخلال السيد بالعقد الإقطاعى . وعلى أساس هذه النظرية استندت المحاولات الاستقلالية الإقطاعية التى قام بها بعض مشاهير البارونات ضد سادتهم من الملوك . ومثال ذلك ما أقسم به بارونات أراجون بإسبانيا لملكهم بأن يكونوا فى طاعته وخدمته طالما حافظ هو من جانبه على الحقوق والعادات والتقاليد والقوانين السائدة فى المملكة ، وإلا فلا طاعة له عليهم .

ولكن هذه على أية حال كانت حالات قليلة ، أما الغالب فكان

(١) راجع Stephenson : Medieval Feudalism, p. 19.

احترام وتنفيذ العقد الإقطاعى من جانب السيد والتابع على حد سواء ، ولا ينقض عقد التبعية عادة إلا وفاة السيد أو التابع .

وما هو مطلوب من التابع من الخدمة أخذ يتحدد ويتخصص، فالواضح أن أتباع الملك جرى استخدامهم لتأدية أعمال سياسية وقضائية وإدارية .

ولا شك أن أتباع الكونتات يؤدون من حين لآخر أعمالا من هذا القبيل ، إذ أنهم يؤدون أعمالا خاصة فى دار سيدهم أو فى إدارة ضياعه شأنهم فى ذلك شأن أتباع الكنيسة وسائر الناس .

على أنه حدث زمن شارلمان أن صار لما هو مطلوب من التابع من الخدمات الحربية الأسبقية على سائر الأعمال . وحفلت مرسومات شارلمان بتفاصيل هذه الخدمات . والمعروف من الناحية النظرية أن التابع لا يؤدى ما هو مطلوب منه من التزامات إلا حين قيام سيده على خدمة الملك ، غير أنه من الناحية العملية حدث منذ عهد لويس التقى ابن شارلمان أن خرج السادة أتباع الإمبراطور على طاعته وقادوا أتباعهم لقتاله . وما تردد من الألفاظ الدالة على الخضوع والإذعان وندرة الأسباب التى تدعو التابع إلى التخلى عن سيده ، وإلزام التابع بألا يلجأ إلى سيد آخر ، يؤكد ما يصح أن نسميه « تسلط السيد واستبداده » فللسيد نوع من السيطرة على التابع . على أنه من ناحية أخرى لا بد أن ندرك أن التابع برغم خضوعه للسيد لا زال يعتبر فى نظر القانون حراً ، ومن حقه أن يتمتع بأهم امتيازات الحرية بأن تجرى محاكمته أمام المحاكم العامة . ومهما يكن للسيد فى بعض الأحوال من السلطة التى يلزم بها أتباعه بتأدية أعمال خاصة كأن يقوموا بأعمال مرهقة أثناء الخدمة العسكرية فلا تجرى محاكمتهم أمام محكمة خاصة . ومع ذلك فإن محكمة الملك تعتبر محكمة عامة ويتولى رئاستها الملك على أنه سيد لأتباعه .

وعلى الرغم من أنه حدث فعلا زمن الكارولنجيين ما يصح أن نسميه

« قدسية التبعية » التى تعتبر ضرباً من الالتزام الروحى الذى غرس فى عقول عدد كبير من الناس فكرة شدة الإخلاص الذى يدين به التابع للسيد وأكد هذه الفكرة ما انطوت عليه يمين الإخلاص من صفة دينية ، فالواقع أنه حدث فى القرن التاسع ما يشير إلى أن أتباعاً تخلوا عن سادتهم أو كشفوا عن خياناتهم لحرصهم على جمع المال والحصول على إقطاعات جديدة .

والمعروف أن الوفاة تنهى عقد التبعية وما يتعلق به من منح الإقطاع غير أن للتابع أن يلجأ إلى وريث السيد فيحصل منه مرة أخرى على الإقطاع الذى سبق أن حازه . ويصح أيضاً أن يتقدم الوالد أثناء حياته إلى السيد بأن يخلفه ابنه فى الإقطاع .

والواقع أن عقد التبعية الذى تطلب التزام الخدمة ، يعتبر المظهر الأساسى للعلاقات الإقطاعية فلم يتقرر بذل الإقطاع إلا لتأدية الخدمة المقررة على أحسن وجه ووفقاً لمساحة الإقطاع وطبيعة أرضه . وبناء على عقد التبعية صار للسيد السلطة المباشرة على شخص التابع ، ولم يقيد هذا الحق سوى أنه ينبغى ألا تجرى ممارسته فى صورة تدعو إلى الحط من مكانة التابع باعتباره رجلا حراً ، أو تضعف ما يدين به التابع من الولاء والطاعة للملك باعتباره من الرعايا .

وما للسيد على التابع من السلطة يصح أن ندركها فيما يبذله التابع للسيد من الطاعة والاحترام . ومن مظاهر الاحترام أن يمسك التابع بركاب الفرس حين ينهض السيد لركوب الفرس ، وأن يصحبه فى المواكب ، وأن يؤدى له بعض الخدمات الشرفية .

وللسيد أيضاً بعض الحقوق التى نشأت من طبيعة العقد الإقطاعى ، فلا يجوز للتابع أن يزوج ابنته إلا بعد موافقة السيد . فإذا تزوجت البنت

نقلت معها جانباً من إقطاع أبيها على أنه بائنة زواجها . فإذا كان من المعروف أن الزوج سوف يسيطر على الأرض التى حازها التابع من السيد فللتابع الحق فى أن يتأكد من أن الزوج ليس من أعداء السيد .

وإذا مات التابع تاركا وراءه ابنة وريثة له ، أو ابناً لم يبلغ سن الرشد ، فللسيد الحق فى أن يصر على أن يتولى شخص رشيد القيام بما هو مقرر على الإقطاع من الخدمة . فإذا كانت الابنة فى سن الزواج اختار لها السيد زوجاً ، أو عهد إلى شخص بالغ عاقل بالقوامة على الوارث صغير السن .

وما هو مفروض على السيد من التزامات يطابق ما يؤديه التابع من خدمات ، فيتحتم عليه ألا يتخذ من الوسائل ما يلحق الأذى بحياة التابع ، أو يخدش شرفه أو يضر بأملاكه ، وأن يظهر نحو التابع المودة والعطف .

كما يلتزم السيد بالدفاع عن تابعه فى ساحة القضاء ، بل وفى محكمة الملك .

ويساعد السيد أيضاً تابعه بما يسديه له من النصائح ، فى أن يلتزم التابع فى سلوكه وتصرفاته العدالة والإنصاف . يضاف إلى ذلك أنه إذا منحه إقطاعاً ضمن له السيد حيازته وامتلاكه ، بأن يتكفل بحمايته والدفاع عنه .

الخدمة الحربية :

وما يؤديه التابع للسيد عادة من الخدمة يقصد بها فى هذه المرحلة من العصر الإقطاعى الخدمة العسكرية Servitium Militis ولا شك أن التابع كان أول الأمر يؤدى للسيد ما شاء من الخدمة العسكرية فى معظم الأحوال ولفترات طويلة. غير أنه بمضى الزمن أخذ الأتباع يفرقون بين أنواع مختلفة من الخدمة العسكرية ويقصرون واجباتهم على طائفة منها . فإذا تعرض إقطاع السيد للغزو من قبل أحد الأعداء فمن الواضح أن يلتزم الأتباع بالنهوض

لمساندته حتى يزول الخطر . أما إذا هاجم السيد أحد جيرانه فيعتبر ذلك أمراً آخر . ولم يكد يستهل القرن الثانى عشر حتى تحددت التزامات الأتباع فى حرب من هذا القبيل . فأهم قاعدة سادت منذ منتصف القرن الحادى عشر هى أن التابع يلتزم بخدمة السيد أربعين يوماً على نفقته الخاصة ، وفيما زاد على هذه الفترة تكفل السيد بنفقات التابع ومئونته .

ومن مظاهر الخدمة الحربية أيضاً حراسة القلاع ، التى تنطوى على تأدية الواجبات فى إحدى قلاع الملك ، وعلى التابع فى بعض الأحوال أن يجعل قلعته تحت تصرف الملك يحل فيها كيفما شاء[1] .

وفى بعض الأحوال يصح الاستعاضة عن الخدمة الحربية ببذل أموال تعرف « بالبدل » . ففى انجلترا أجازت الملكية فى عصر مبكر دفع بدل نقدى عوضاً عن الخدمة الحربية . والواضح أن ما يتحصل من أموال من هذا البدل هيأ للملوك أن يستأجروا جنداً أطوع لهم وأكثر إخلاصاً من الجند الإقطاعية . على أن القاعدة فى فرنسا وألمانيا هى أن الخدمة الحربية سادت فى هذين الإقليمين .

على أن مسئولية التابع لم تقف عند حد الخدمة الحربية ، بل تحتم عليه فى أحوال معينة أن يقدم لسيده العون والمساعدة ، وهو ما يعرف باسم Aid ، وشملت هذه المساعدة عوناً مالياً يقدم للسيد فى حالة الضيق وشدة الحاجة . غير أن هـــذه المساعدات لم تتحصل فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر إلا فى أحوال نادرة ، ولم تلبث أن تحددت الحالات التى تؤدى فيها المساعدة للسيد ، عند افتداء السيد حينما يقع أسيراً ، وزواج ابنته الكبرى ، وتنصيب الابن الأكبر فارساً . ويصح أن يضاف إلى هذه الأحوال الخروج فى حملة صليبية ، أو التوجه إلى البلاط الملكى ،

---

(١) راجع : Pidal : Historia de España, t. V, pp. 7-16.

أو القيام بعمل استثنائى . وينبغى على التابع أن يقوم بضيافة سيده ، فكلما قدم السيد لتفقد أحواله حرص التابع على أن يوفر له أسباب التسلية .

وإذا احتاج السيد من الخدمة الحربية أو العون المالى مايتجاوز مايلتزم به الأتباع فلايسعه إلا أن يطلب إليهم أن يبذلوا له طواعية مساعدة ومنحة . وليس من حقه أن يفرض عليهم ضريبة إلا بمقتضى مايحدده العقد الإقطاعى .

المشورة : هى إحدى الخدمات الرئيسية المطلوبة من التابع للسيد . ففى ظل النظام الإقطاعى التزم التابع بأن يقدم المشورة لسيده ، وهى تسير على قدم المساواة مع تقديم المساعدة . ولما كانت هذه المشورة من مظاهر الخدمة فإنها تطلبت من التابع أن يقدم إلى سيده حينما يدعوه ، فكل تابع مسئول عن الحضور شخصياً إلى مجلس السيد وعلى نفقته الخاصة . وهذه الحقيقة هى التى جعلت لفظ Consilium يطلق على المجلس الذى يتشاور فيه السيد مع أتباعه . ويقدم التابع لمناسبات مختلفة كأن يشهد الاحتفال بزواج ابنة السيد أو تنصيب ابنه فارساً ، أو الاشتراك فى استقبال زائر كبير ، أو لكى يستشير السيد أتباعه فى أمر حرب أو عقد معاهدة . كما جرت العادة أن يستدعى السيد الأتباع للتصديق على قانون من قوانين الحكومة أو يؤلف منهم محكمة . وليس للسيد سلطة تحكمية فى التشريع فالقانون ليس إلا العرف السائد بالإقليم ، وهو غير مسطور فكل مايتعرض له من تغيير أو تجديد يتولاه « مجلس السيد أو بلاطه » فالأتباع هم الذين يعلنون القانون الذى يخضعون له وإذا ارتكب أحدهم ذنباً خضع لحكم أسويائه .

ومن أهم خصائص القضاء الإقطاعى إجراء المحاكمة عن طريق القتال ، أو صدور الحكم بالخيانة . فإذا حدث النزاع على أرض أو جرى اتهام شخص باغتيال شخص آخر دون مبرر تخلت المحكمة الإقطاعية للمتقاضين

بتسوية النزاع بينهما عن طريق القتال فإذا حلت الهزيمة بأحدهما تعرض للعقوبة التى نص عليها القانون الإقطاعى . وكل عمل لايليق بالسيد الإقطاعى يعتبر من قبيل الخيانة ومن أمثلة ذلك رفض التابع أن يؤدى ماهو مقرر عليه من الخدمات ، فإذا تغيب عن جيش السيد ، أو تكرر منه إغفال القدوم إلى محكمة السيد فللمحكمة أن تعتبره متمرداً وتجرى مصادرة إقطاعه .

على أنه يصح فى بعض الحالات أن يتحدى التابع سلطة السيد ، بأن ينكر يمين الإخلاص الذى بذله لسيده على أساس أن السيد هو الذى نقضه ومن الطبيعى أن تنشب الحرب تبعاً لذلك .

ونستخلص مما سبق أن الحيازة الإقطاعية التى ينالها الأتباع يحصل السيد من ورائها على ماياتى :



١ — التبعية والإخلاص .

٢ — الخدمة التى يقدمها الفارس .

٣ — المساعدات الإقطاعية .

٤ — الضيافة .

٥ — مايرفع للمحكمة من قضايا ومايترتب عليها من رسوم .

٦ — النتائج التى تترتب على مايتعرض له الإقطاع من أحداث مثل بذل الحلوان ، الوصاية ، الزواج ، المصادرة ... الخ .

التبعية الاكليركية : المعروف أن الغرض من بذل الاقطاع هو أن يفيد منه صاحبه فى التجهز بالجند والخيل والأسلحة ، وسائر الأشياء النافعة ، وأن مايناله رجال قصر الأمير من إقطاعات يقابل مايضطلعون به من

واجبات رسمية . إلا أنه يصح أن تحوز الكنيسة إقطاعا لتستعين به فى مباشرة الشعائر . على أنه يصح التساؤل هنا : كيف صار رجال الدين أتباعا يؤدون واجب التبعية ، الذى يعتبر فى جوهره علاقة حربية ، على حين أن القانون الكنسى يحرم سفك الدماء ؟ .

الواقع أن هذا المنع جرى التغاضى عنه فى القرنين التاسع والعاشر ، فلم يكتف الأساقفة ورؤساء الأديرة بحيازة الإقطاع وبذل التبعية ، بل شاركوا فى القتال شأن سائر الأتباع . وأشادت أنشودة رولان بما لقيه رئيس الأساقفة تبريين من الاستشهاد فى ساحة القتال . ومع ذلك فإن البابوية التى نهضت فى القرن العاشر فى الوقت الذى ألفت فيه هذه القصيدة قامت بحملة لتخليص الكنيسة من السيطرة الدنيوية ، وأرغم المصلحون الأمراء على أن يقبلوا تعديل القانون الإقطاعى . وماحدث من نزاع على التقليد العلمانى انتهى إلى الاتفاق على أن يكون للسيد الإقطاعى الحق فى أن يمنح رجال الكنيسة الإقطاعات ، ولم يجعل للكنيسة إلا حق تقليد رجالها بشارات الوظيفة السامية . على أن القاعدة السائدة هى أن رجل الدين ينبغى أن يمتنع عن الاشتراك فى القتال . وماهو مطلوب من الخدمة الحربية عن الإقطاع الذى يحوزه يصح الوفاء به بتجزئة الإقطاع[1] الذى يحوزه. على أنه يمضى شأن سائر الأتباع فى تأدية الأتباع فى تأدية المساعدات ، والضيافة ، وحضور محكمة السيد ، غير أنه لا يشترك فى الأحكام الصادرة بالإعدام أو التنكيل والتمثيل بالجانى .

إزالة الغابات وإصلاح الأراضى : المعروف أن القرن الحادى عشر يعتبر

---

(١) تجزئة الإقطاع وهى المعبر عنها بكلمة Subinfeudation معناها أن يقوم التابع بتقسيم إقطاعه الى أجزاء يمنح كل جزء منه الى تابع آخر فى نظير أن يؤدى هذا التابع الجديد الخدمة العسكرية نيابة عن التابع الأول أو جنباً الى جنب معه . وبهذه الطريقة أمكن لرجال الكنيسة أن يجدوا من يقوم عنهم فى تأدية الواجبات الحربية المطلوبة .

أنظر : Stephenson, pp. 28-29.

بداية لظهور حركة بالغة الأهمية ، وهى حركة قطع الأشجار وإزالة الغابات واستصلاح أراضيها ليمكن زراعتها ، فلم يكن الغرب معروفاً دائماً بكثافة سكانه ، فنى انجلترا الأنجلوسكسونية ، والإمبراطورية الكارولنجية من الغابات الكثيرة والمستنقعات مالم يجعلها مأهولة بالسكان . وترتب على عصر غارات الفيكنج ، والفوضى الداخلية الشاملة أن ازدادت مساحة الأرض الجرداء . ففى فرنسا صار معظم القرى مهجور ، وتحولت أراضيها إلى غابات وشهد القرن الحادى عشر بداية حركة ضخمة لإصلاح الأراضى . على أن جانباً كبيراً من هذه الحركة اهتم بتنظيمه السادة الذين دفعهم الأمل فى الثراء والرخاء إلى الحرص على استغلال الإقطاعات ، فلم يكن يربط باريس بأورليان فى أوائل القرن الحادى عشر إلا رقعة ضيقة من الأرض غير مأهولة بالسكان ، فأقام سادة هذا الإقليم ، وهم ملوك فرنسا ، قرى جديدة ، وشجعوا الناس على الإقامة بها وسار سادة آخرون على نهج هذه السياسة فتحولت جهات من الغابات إلى أراضى زراعية خصيبة .

ولهذه الحركة أهمية كبيرة من نواحى عديدة ، فازداد عدد السكان ، وتزايد إنتاج الأرض ، وتوافر خراج السادة الإقطاعيين ، بل إنها أصلحت أحوال الفلاحين . ففى سبيل اجتذاب مستوطنين جدد لجأ السادة إلى بذل شروط مغرية فصار النزلاء الجدد بهذه الأراضى الجديدة أكثر ثراء ورخاء من أولئك الذين أقاموا بالقرى القديمة .

وهذه الحركة الكبيرة لإصلاح الأراضى ظلت مستمرة فى طريقها مايقرب من قرنين من الزمان اتخذت أثناءهما سبلا ووسائل مختلفة ، فتولت الأديرة الكبيرة تجفيف المستنقعات وقطع الغابات ، وقام السادة العلمانيون بمثل هذا العمل . غير أن جانباً كبيراً من العمل لم يتجاوز حداً ونطاقاً صغيراً بأن استأذن بعض الفلاحين سادتهم فى إصلاح مساحة صغيرة

من الأرض وقاموا بزراعتها ، وأخذت أراضى زراعية جديدة تظهر على أطراف الغابات الإنجليزية الكبيرة ، وبعض آثار هذه العملية نلمسه أحياناً فى أسماء الأماكن الحديثة ، كالأسماء التى اقترنت بلفظة New مثل Newcastle وهكذا .

وترتب على هذه الحركة الإصلاحية الكبيرة أن اتسع نطاق الزراعة فى العصور الوسطى ، ونجم عن نمو المدن وظهور الاقتصاد النقدى نتائج عميقة الأثر .

صورة عامة للحياة الاجتماعية

فى المجتمع الإقطاعى

نتناول فى هـــذه اللمحة عن الحياة الاجتماعية فى أوربا فى العصور الوسطى فى ظل النظام الإقطاعى ، نقطتين على جانب كبير من الأهمية : أولاهما تتعلق بموضوع الفروسية ذلك النظام الذى نبت وترعرع وآتى ثماره فى ظل الإقطاع ، ومايتصل بالفروسية من أنواع هـذه الفروسية ومبادئها وإيمان الفارس وأثر الكنيسة فى توجيه هذا النظام والاستفادة منه لخدمة أغراضها . وأما النقطة الثانية فتتعلق بكل مايتصل بمستوى الحياة ومركز المرأة فى المجتمع ، وما تفرع عن ذلك من اهتمام عظيم بالأدب والشعر خاصة شعر الغزل وملاحم المآثر وظهور شعراء التروبادور...الخ .

أولا ــ الفروسية :

ارتبطت حياة أبناء الطبقة الإقطاعية بالإعداد للقتال وممارسة مهنة الحرب ، ونظراً للاعتقاد بأن والدى النبيل الصغير يسرفان فى تدليله جرت العادة بأنه متى بلغ السابعة أو الثامنة من عمره تقرر إرساله بعيداً عنهما

لـكى ينشأ ويتربى فى دار أمير إقطاعى آخر هو فى معظم الأحوال السيد الإقطاعى للأب أو أقرب الناس إليه فيتعلم الصبى الاهتمام بأدوات الحرب والتدريب عليها ويمارس من الحياة الخشنه ما يعتبر خير وسيلة لإعداده لحياته المقبلة باعتباره فارساً . فإذا ثبت أنه أضحى مستعداً لأن يتخذ موضعه فى المعركة ويجرى ذلك عادة حين يبلغ العشرين أو الحادية والعشرين من عمره تقرر تقليده السلاح فى احتفال مهيب بأن يركع أمام فارس مجرب ويتلقى ضربة من صفحة السيف . وكانت هذه الضربه قديماً فيما يبدو بالغة العنف والمقصود منها قهره إذا وجد إلى ذلك سبيلا ، ثم أصبحت فيما بعد ضربة رمزية خفيفة تقع على الـكتف وهـذا الاجراء هو المعروف (بتنصيب الفارس) ومتى تقلد الشاب سلاحه وتلقى الضربة أضحى فارساً كاملا . وليس فى إستطاعة الملك أن يتولى الحـكم ، وليس فى وسع وريثه أن يباشر إقطاعه مالم يتم تنصيبه فارساً لأن ذلك يعتبر دليلا على بلوغ سن الرشد .

ويمضى الفارس معظم وقته فى القتال ومعالجة الأسلحة وممارسة الصيد ولما ازدادت قوة أمراء الإقطاع وتطلب حرصهم على توفير قدر كبير من الأمن والسلام فى بلادهم الإقلال من الحروب الإقطاعية ، أقام النبلاء معارك فـكاهية اتخذت اسم المنازلات Tournements فالسيد الـكبير الذى أحس أن الحياة أضحت جافة بالغة الهدوء يرسل دعوة إلى الجهات المجاورة يعلن فيها قيام حفلة مبارزة فى يوم محدد فينقسم الفرسان القادمون إلى فريقين وتجرى بينهما معركة حامية . والفروق بين هذه المبارزات وبين المعارك الحقيقية هى أن يجرى بها تقديم القادمين وتجهيز الفرســـان أنفسهم بالسلاح وحرص المتبارزين على التماس الأمن والسلامة ولا يجرى حبس من يقع فى الأسر منهم بل يدفع فدية يصح أن تـكون عبارة عن قرية أو قلعة منيعة .

وفى أثناء القرنين الحادى عشر والثانى عشر نبت من بيئة الطبقة الإقطاعية وأسلوب حياتها طائفة من الأفكار الأخلاقية تتمثل فيما نسميه (فروسية) وهى الفضائل التى ينبغى أن يتحلى بها الفارس ولذا يحسن أن نشير إلى ثلاث أنواع من الفروسية :

١ — فى الفروسية الإقطاعية من الطبيعى أن تنمو الأفكار الأساسية من أسلوب الحياة التى يعيشها النبيل الإقطاعى .

٢ — أما الفروسية الدينية فإنها تمثل مفهوم الكنيسة عن الفارس المثالى .

٣ — والنوع الثالث من الفروسية هو ما يمكن أن نسميه (بالفروسية الاجتماعية) والتى كان للمرأة الدور الرئيسى وفى قيامها ، وساعدها على النمو والتطور مساهمة الرجال فيها بتطبيق الأفكار التى جرت حول عشق الفرسان .

فالمحاربون الجرمان جلبوا معهم إلى أراضى الأمبراطورية الرومانية الإعجاب بفضائل المحارب مثل الشجاعة والاقدام فى المعركة وقدروا أيضاً الحكم السديد الذى اشتهر فيما بعد بالإخلاص وهم بهذا إنما أوجدوا صفات أصيلة لم يكتسبها نبلاء الفرنجة ومن اليسير أن يدرك أهميتها عند الشعوب الجرمانية كل من يطالع أساطير الشماليين وآداب الانجليز السكسون . على أن وجه الغرابة هنا هو ما حدث من تطبيقها أيضاً على المجتمع الإقطاعى . فالرجل الذى جعل القتال مهنته الأولى لا بد أن يكون باسلا شديد البأس فى المعركة . على أن القائد البارع اتصف أيضاً بالرزانة والحكمة والتعقل فتوقف بناء المجتمع الإقطاعى بأكمله على احترام ما يصدر عن الشخص من يمين الولاء أو الإخلاص التى تعتبر من أهم الفضائل الإقطاعية وتعتبر أيضاً

أساس الفروسية الإقطاعية(١) .

وأقدم الصفات الأخلاقية عند الطبقة الإقطاعية ترتبط بمهنتهم الأصلية ولم يكن الغرض منها سوى أن تجعل الحرب أكثر قبولا عند المشتركين فيها، وعلى الرغم من اتخاذ الفرسان الدروع لحمايتهم فإن الفارس لم يكن بنجوة من هجوم مفاجيء من قبل عدوه قبل أن يتم إرتداء عدته ، ومن ثم نشأت الفكرة بأنه لا يجوز مطلقاً مهاجمة فارس غير مسلح بل ينبغي أن يتوافر له من الوقت ما يكفي لارتداء درعه وتجهيزه للقتال .

ونشأ أيضاً العرف الذي يعتبر الأسير ضيفاً عزيزاً فقد يحدث في وقت من الأوقات أن يظفر بآسره . والخطوة التالية هي قبول ابن الأسير أو ابن أخيه رهينة إلى أن يقوم الأسير بجمع فديته . وفي القرن الثالث عشر جرت العادة بإطلاق سراح الفارس لجمع الفدية على أن يعد بالعودة إذا لم يوفق في جمعها .

ومن فضائل الفروسية التي تستحق الذكر والتنويه فضيلة السخاء ففي معظم المجتمعات شاد الناس بمن يجود بالعطايا وقد كانت هذه من صفات الجرمان البارزة وصار لها أهمية في القانون الإقطاعي للفروسية . وعلى الرغم من أن مفاهيم الفروسية الإقطاعية نبتت من البيئة الإقطاعية فإن المحترفين من رواة القصص لجأوا إلى تبسيطها وإذاعتها بين سائر الناس . فالأمسيات تمضي ثقيلة بطيئة في القلاع الظلمة ويشتد شغف الفرسان والسيدات إلى التسلية فتولى تقديم هذه المتعة فئات مختلفة من المترددين على القلعة فمنهم رواة القصص البذيئة وأرباب الدببة الراقصة والجواري الراقصات ومنهم أيضاً الشعراء الذين يصوغون القصص الطويلة شعراً ويقومون بإلقائها ومنهم المنشدون الذين يغنون ما ألفه غيرهم من مقطوعات وقصائد

---

(١) أنظر : Bleye : Manual de Historia de España, t. I, p. 359.

فانتشرت بهذه القصص أفكار الفروسية ومفاهيمها واعتمد المغنون والمؤلفون على سخاء سادتهم وجودهم ولذا فإن الكرم سار فى قصصهم الفضيلة الأساسية عند الفرسان .

على أن أفراد الارستقراطية الإقطاعية اشتد تعلقهم بما يتلاءم مع جو العصر الذى يعيشون فيه إذ اعتنقوا جميعاً فيما عدا بعض حالات نادرة تعاليم الكنيسة المسيحية فإذا ارتكبوا إثماً من الآثام لم يلبثوا أن يلتمسوا التوبة والغفران . فعلى الرغم من أن الصليبيين الذين نهضوا لقتال المسلمين فى أسبانيا والشرق الأدنى لم تحركهم اعتبـــارات روحية خالصة فلاشك أن الحافز الغالب عندهم لم يكن سوى الرغبة فى الخلاص . يضاف إلى ذلك أن كل إقطاع مهما تضاءلت أهميته لابد أن تكون به بيعة أو دير واشتهرت الأسرات الإقطاعية الكبيرة بما قامت به من إنشاء أديرة عديدة ورعايتها فلكل سيد قسيس خاص ولكل قلعة إقطاعية كنيسة خاصة . على أن نسبة كبيرة من خراج معظم الإقطاعات خصصت لأغراض دينية . وفى القرن الثالث عشر تضاءلت أهمية باونيات كبيرة بسبب ما اشتهر به أربابها أجيالا عديدة من السخاء فى إغداقهم على الكنيسة .

وقد حاولت الكنيسة طوال الفترة التى تطور فيها النظام الإقطاعى أن تحد من الحروب الإقطاعية وأن تحول جهود الفرسان إلى ما اعتبرته سبلا أكثر فائدة وأعم نفعاً . واشتدت الكنيسة فى الدعوة إلى مذهبها الرسمى وفى الحرص على أن تنال نصيبها من الغنيمة فى الحرب . وفى القرن الحادى عشر قررت الكنيسة ما يعرف بهدنة الله أو الهدنة المقدســة Tregua Dei والسلام الإلهى أو السلام المقدس Pax Dei وهى الفترات التى يتحتم فيها تحريم القتال . والراجح أنه استقر فى أذهان رجال الكنيسة فكرة تحويل نشاط الفرسان إلى قتال المسلمين . ثم حدث فى القرن الثانى عشر أن أخذ الكتاب الكنسيون وأشهرهم حنا سالسبورى فى تنمية فكرة

الكنيسة عن الفارس المثالى بأن يكون مسيحياً تقياً غرضه الأساس أن يحمى الكنيسة ويدافع عن عقيدتها وينكر الجرائم على إختلاف أنواعها ويرعى الضعفاء والعجزة . وفى سبيل تدعيم دعواها لجأت الكنيسة إلى عرض النظرية التى تجعل الفرسان يؤلفون طائفة مثل طائفة رجال الدين فالفارس اختاره الله ليقاتل فى سبيله ، وشجع رجال الدين استخدام الطقوس الدينية فى تنصيب الفتى فارساً وأقاموا لهذا الغرض شعائر خاصة . وما لدى الكنيسة من مثل عن خلق الفارس جرى تفسيرها وشرحها فى رسائل وعظات ومأثورات أدبية .

ثانياً ـ مستوى الحياة ومركز المرأة فى المجتمع :

تعتبر حياة الطبقة الإقطاعية من الناحية المادية بالغة الشدة والقسوة فالقلاع شديدة الرطوبة معرضة للهواء فإذا كانت القلعة من الخشب لا يجرى فيها شىء من التدفئة وإذا كانت مشيدة من الحجارة فما تصاعد من الدخان منها يؤدى إلى الاختناق ولم يكن هناك حتى القرن الثالث عشر من يملك قلعة تزيد على حجرتين إلا عدداً قليلا من كبار الأمراء . ففى القاعة الرئيسية يباشر السيد أعماله ويستقبل موظفيه وأتباعه ويعقد محكمته ويحيى ضيوفه ، وفى نفس القاعة تتناول الأسرة وحاشيتها الطعام على موائد مختلفة فإذا أتى الليل جرى استخدام هذه الموائد أسرة للخدم والضيوف والحاشية أما الحجرة الأخرى فيختص بها السيد وزوجته وأطفالها . وللسيد وأسرته أن يصيبوا من الطعام ما يشتهون غير أن هذا الطعام لم يكن منوعاً فالأطباق الكبيرة والتى تعتبر الأساسية مؤلفة من الطيور والحيوانات التى صادها السيد الإقطاعى ، يضاف إلى ذلك الخبز وكميات كبيرة من النبيذ وتوافر لديهم أيضاً الكساء غير أن نوع الكساء تحدد إلى حد كبير بكفاية ومقدرة الصناع .

والخلاصة أن النبيل فى القرنين العاشر والحادى عشر كان له موردان :

الأرض والعمل. غير أن العمل لم يكن شديد الأثر كما أن الأرض قد ساءت فلاحتها ولم تأخذ الطبقة الاقطاعية فى الاقتراب من الترف إلا عند إحياء التجارة .

واهتم نساء الطبقة الإقطاعية بممارسة الغزل والنسيج ، والحياكة والإشراف التام على منزل السيد . والواضح أن المرأة دائماً كانت فى رعاية الرجل سواء كان أباها أو زوجها . أما الأرملة فتعتبر فى حماية سيدها أو ابنها الأكبر . وللمرأة أن ترث الإقطاع غير أنها لا تديره إلا عن طريق زوجها ، وذلك لأن مهمة الطبقة الاقطاعية تركزت فى مباشرة القتال وليس للمرأة شيء من الحقوق إزاء زوجها ، وقد حاولت الكنيسة أن تحمى الزوجة ، غير أنها لم تستطع إلا فرض قيود ضئيلة فى هذه الناحية ومع ذلك فإن الزوجة تعتبر سيدة القلعة والإقطاع فى حالة غياب الزوج فيتحتم على أتباعه وموظفيه وخدامه أن يطيعوها .

وقد سبق أن أشرنا فى أكثر من موضع إلى أهمية المرأة فى الحياة الاجتماعية وبصفة خاصة ما يتفرع من هذه الحياة من نواحى ثقافية وأدبية فإذا تناولنا الآن جانباً من هذه الحياة فى الشعر مثلا نجد أن أفكار الغزل ظهرت لأول مرة فى الشعر الغنائى الذى جرى تأليفه فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر فالرجال والنساء الذين ألفوا هذه القصائد اتخذوا اسم التروبادور . وقد اختلف الباحثون فيما إذا كانت أصول شعر التروبادور ترجع إلى بقايا الشعر التقليدى القديم التى احتفظ بها على أنها أغانى شعبية أو ترجع إلى شعر الغزل عند المسلمين فى أسبانيا وأن كلمة تروبادور نفسها مأخوذة من الكلمتين العربيتين (دور) و (طرب) أو (دور الطرب) وذلك بعد تحريفها إلى تروبادور[1] وكيفما كان الأمر فإن دعاة التسلية

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦١ وما بعدها

والترفيه فى جنوب فرنسا بالذات شرعوا فى تأليف القصائد التى يمدحون فيها السيدات ويصفون ما يترتب على التشبب بهن من الفوائد ولقيت الفكرة إستجابة من أكبر أمراء الإقطاع بالأقليم وهو وليم التاسع دوق أكيتانيا فصار تأليف مقطوعات الغزل الغنائية أو على الأقل تقديرها هو النهج السائد فى جميع أنحاء جنوب فرنسا ، ولم يكن حظ التروبادور من الأفكار قليلا وبسيطاً فالتشبب بالسيدة أصلح الرجل فى كل ناحية من نواحى حياته إذ جعل منه شاعراً بالغ الجودة وسيدا وفارساً شديد البسالة أما السيدة فحازت الإعجاب بفضل ما اشتهرت به من الجمال والرقة والمرح والاتزان والمتيم بالسيدة كان لا يفكر فى شيء سوى العمل على إرضائها ، وجلب السرور لها فكان يركز أفكاره ومشاعره فى سيدته .

ومعظم قصائد التروبادور وجهها إلى السيدات رجالا تكاد تكون مكانتهم الاجتماعية وضيعة ومعظم من ألف القصائد من النبلاء إختاروا مجتمعات زملائهم من صغار النبلاء ومن ثم فإن شعر التروبادور لم يمجد المرأة فحسب بل جعلها فوق قاعدة عالية .

ولم يكن شعر التروبادور ظاهرة منفردة أو منعزلة إذ أن الفترة التى شهدت مولده وتطوره شهدت أيضاً نهوضاً شاملا فى مكانة المرأة فمريم العذراء التى احتلت فيما مضى مكانة متواضعة فى الديانة المسيحية أضحت مع ابنها الشفيع الوحيد للمذنبين من الرجال ، فالبابا الكبير أنوسنت الثالث ألف فى صدر شبابه قصائد تروبادورية عن العذراء . ولم تلبث أفكار الغزل فى القصور أن انتقلت إلى شمال فرنسا عن طريق حاشية اليانور دوقة إكيتانيا وحفيدة وليم التاسع الشاعر التروبادورى وقد اشتهرت اليانور برعاية رجال الأدب على اختلافهم وسار على نهجها ابنتاها مارى واليس . على أن رجال فرنسا ونساءها أعجبوا أكثر من غيرهم بشعر التروبادور .

ويتعلق بموضوع الفروسية أيضاً إلى جانب دراسة مستوى الحياة ودور

المرأة فى المجتمع وما يتفرع عنه من دراسة الحياة الثقافية أن نلق نظرة على الآداب التى تشرح الأفكار المتعلقة بالفروسية ، فالفروسية الإقطاعية أحياها ملاحم المآثر وهى قصائد طويلة تعالج قصة من القصص وتعرف بالملاحم والواضح أن هذه القصائد لم يكن مقصوداً بها الإقطاعيين فمحتوياتها الأساسية ليست إلا أخباراً لا حصر لها عما انطوى عليه النظام الإقطاعى من معارك وقصص فنسمع : كيف أن البطل مزق أعداءه إرباً وكيف فاقهم فى البلاط الإقطاعى .

واشتهرت بعض ملاحم المآثر بطابع دينى كأن يحارب البطل المسلمين وأن يكون راعياً لدير من الأديرة ومن أجمل قصائد المآثر وأقدمها عهداً أنشودة رولان المعروفة التى تكاد تقتصر كلها على القتال والمكيدة غير أن القتال كان موجهاً ضد المسلمين . وخير ما يمثل الفروسية الدينية تمثل فى الرسائل التى ألفها رجال الكنيسة أمثال حنا سالسبورى وفى المواعظ وفى عدد قليل من القصص .

ثالثاً : مرحلة انهيار النظام الإقطاعى

رأينا كيف ظهر النظام الإقطاعى فى ظل ما غلب على المجتمع من صفة الزراعة . وبفضل حيازة الإقطاع استطاع الأمير فى أوائل العصور الوسطى الحصول على قوة مؤلفة من فرسان مدربين ، وأن يشحن قلاعه بالجنود وأن يسد حاجة الحكومة دون أن ينفق فى ذلك أموالا . غير أن الدولة التى غلب عليها الإقطاع خضعت لسلطان فئة أرباب الإقطاعات وكبار سادة الضياع الذين احتكروا لأنفسهم الثروة . فمتى انهار ذلك الاحتكار لم يعد للتدابير الإقطاعية اهمية مطلقاً . فإذا حصل الأمير على أموال من مصادر جديدة فمن الطبيعى أن يؤثر استئجار الجند والموظفين لكى يزداد سلطانه على الجيش والإدارة المدنية . فإذا أدركت الارستقراطية الإقطاعية عجزها وضعفها برغم معارضتها الشديدة لكل تغيير لم تلبث أن فقدت ما كان لها من سيادة حربية وسياسية . فتداعى النظام الإقطاعى وانهياره إنما يصح فهمه وإدراكه على اعتبار أنه مظهر للثورة الاقتصادية التى جرت فى أوربا فى الفترة الواقعة بين القرن الحادى عشر والثالث عشر . ولم يكن قبل نهاية القرن الحادى عشر ليوجد سوق للمنتجات الزراعية لأن السيد صاحب الضيعة وأهل داره استهلكوا منتجات الضياع وما تبقى منها اســتنفده الفلاحون ، فلما ظهرت المدن واستوطنها التجار والصناع ظهر من الإنتاج ما يصح أن يفيض عن الحاجة إليه وترتب على ذلك أن ظهرت سوق للإنتاج الزراعى ، ومع ذلك فإن نمو هذه السوق لم يجر إلا بالتدريج ، فالمحلات التجارية الأولى التى نزل بها التجار لم تؤثر إلا فى الجهات القريبة منها وكلما نمت المدينة وازداد عدد سكانها واتسعت مساحتها نشأت سوق كبيرة واشتد اهتمام أرباب الضياع والأتباع بها . والمعروف أن السيد لم يحفل فيما مضى بأن ينتج ما يزيد على استهلاك أهل داره أما الآن فصار فى

وسعه أن يبيع هذا الفائض وأن يشترى بثمنه ما احتاج إليه من الأشياء واستطاع الفلاح أيضاً أن يبيع فى هذه السوق الفائض عنده وبذلك بدأ دخول النقد فى الاقتصاد الزراعى .

ثم حدث أن نزع السادة والأتباع إلى الاستعاضة عن دفع الرسوم نوعاً بأن تؤدى نقداً وفى القرن الحادى عشر ظلت إيجارات عديدة تحتفظ بأسمائها القديمة على الرغم من أنها تؤدى نقداً . فيؤدى الفلاح نقداً ما تقرر عليه فى الحقول المزروعة ويدفع مبلغاً معيناً من المال مقابل الرعى فى غابات السيد .

أما خدمات العمل فلم تتغير إلا فى عصر متأخر فى القرن الثالث عشر وكان ذلك لصالح الجانبين إذ كان السيد يحصل من المستأجرين على المال مقابل ما هو مقرر عليهم من العمل ، وبهذا المال يستاجر عمالا يؤدون له ما شاء من الأعمال . وهذه عملية هامة استغرقت نحو ثلاثة قرون اعتباراً من القرن الحاد ىعشر وحتى القرن الرابع عشر .

واتصل بالتحول إلى النقد حركة اخرى بالغة الأهمية هى تحرير الرقيق فالمعروف أنه تم فى بعض الأحيان تحرير أفراد وأسرات من الرقيق ، كأن يكون الدافع لذلك ما أشتهر به بعض السادة من التقوى وأنه يرضى الكنيسة وتعاليمها بهذا الإجراء أو اعتقاده بأن ما يحصل عليه من ضرائب من القرية سيزيد بتحرير رقيقها ، غير أن الاعتبار المباشر للتحرير قام على أساس اتفاق يلتزم فيه العبد بدفع مبلغ كبير من المال على فترات معينة .

والراجح أن السيد رأى أن مايحصل عليه من أموال بهذه الطريقة يزيد عما يجمعه من الضرائب . والواقع أنه من الناحية الاقتصادية كان الأمر خسارة على الفلاحين ، فما أحرزوه من حقوق بعد أن أصبحوا أحراراً لم يكن من اليسير الاستمتاع به ، فمثلا يستطيع الفلاح الحر أن يغادرأرض

سيده غير أنه لا يحمل معه متاعه الخاص ولا يخرج إلا بثوبه وللفلاح الحر أن يتزوج متى شاء غير أنه يتحتم عليه أن يؤدى رسماً كبيراً إذا كانت العروس من جهة أخرى . على أن تحرير الرقيق أنهى ما للسيد من سلطة تحكمية اقتصادية ، والخلاصة أن السادة لم يهتموا كثيراً فى نهاية القرن الثالث عشر بالزراعة فلم يكونوا سوى سادة يعملون على جباية الخراج ففقدت الضيعة بذلك أهميتها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

أما أمراء الإقطاع فقد حازوا بطريق مباشر أو غير مباشر دخلا كبيراً بنمو التجارة فى بلادهم وما حدث من تحسن أحوالهم المالية جعلهم يتخذون من الوسائل والإجراءات العديدة ما اعتبرها الأتباع شديدة الخطورة عليهم ، ففى انجلترا مثلا برع هنرى الثانى ١١٥٤ : ١١٨٩ فى فى توطيد السلطة الملكية وتقويض سلطة البارونات فأكثر من موارده المستمدة من المدن بما فرضه من ضرائب وبما لجأ إليه من بيع الحريات فأجرى بعض الإصلاحات القضائية التى ترتب عليها أن أخذت القضايا طريقها إلى محاكمه وأخذت تبتعد عن محاكم البارونات واستعاض فى حكومته المركزية عن الأتباع الإقطاعيين بفئة محترفة من رجال الإدارة . وعهد بإدارة الأقاليم إلى فئة من هذا القبيل وخضع لإشراف قضاة الملك كبار الإقطاعيين الذين مارسوا السلطة السياسية فى سائر الجهات . وعلى أى الأحوال ففى القرن الرابع عشر صار للقانون العام الصادر عن الملك السيادة فى سائر البلاد فأزال بذلك ما كان للبارونات من قوانين .

أما حكومة الملك المركزية والمحلية فليست إلا مثالا لما أوجده هنرى الثانى من حكومة . وزالت الصفة الإقطاعية عن الجيش الانجليزى فأصبح مؤلفاً من المأجورين ومن يخدم فيه من النبلاء الفرسان ، والنبلاء الرماة يتقاضون أجورهم من الملك إذ أن خراج الملك كان مستقلا ومنفصلا عن الخدمة التقليدية المستمدة من الإقطاعات فتقررت ضريبة عامة على

ذوى الأملاك بصرف النظر عن اختلافتهم فيما يحوزون من إقطاعات ، وأقر هذه الضرائب ممثلو الطبقات المختلفة فى البرلمان .

وألف البارونات أحد المجلسين ولم يحتفظ بالتقاليد الإقطاعية سوى طبقة الأعيان من ملاك الأراضى بالأقاليم ومع أن ما جرى من تطور فى إنجلترا له مثيل فى فرنسالم يكن بفرنسا من المجالس ما نال من التفوق الدستورى مثلما نال البرلمان الانجليزى وظلت الأرستقراطية الإقطاعية فى فرنسا تحتفظ بمكانتها حتى قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ على أن هذه الطبقة النبيلة تجردت من سلطتها السياسية . فمنذ عصر فيليب الرابع ١٢٨٥ : ١٣١٤ سيطر على الحكومة فئة من رجال القانون والمحاسبين ينتمون إلى طبقة استطاعت بفضل مساندتها المالية أن تبذل المساعدة للملوك الذين تلوا فيليب الرابع فى الحكم وأن تقضى على ما بقى من الآثار الإقطاعية وزاد فى تداعى الأرستقراطية الإقطاعية ما حدث أواخر العصور الوسطى من تغيرات حربية . فالمعروف أنه منذ زمن الكارولنجيين صارت الفروسية هى الأداة الحربية عند الأمراء الأوربيين لأنها تفوق فى قوتها وآثارها جيوش المشاة السائدة وقتذاك على أن الأحوال تغيرت فى أواخر القرن الثالث عشر فصار فى وسع الأمير أن يدفع أجور الجند وأن يخضعهم تبعاً لذلك لمستوى جديد من النظام فكان من بين الجيوش المأجورة فئات من المشاة أثبتت مهارتها وكفايتها بفضل ما حصلت عليه من تدريب سليم وما تزودت به من أسلحة ، فحدث فى معارك عديدة أن استطاعت جموع من حملة الحراب أن تقاوم فى بسالة وصلابة هجمات الفرسان وصار بوسع الرماة أن يؤلفوا قوة دفاعية وهجومية بفضل مهارتهم فى استخدام القوس .

فالواضح أن هذه التدريبات والخبرات أوحت باتخاذ نظام جديد فى الخطط الحربية لم يكن معروفاً فى النظام الإقطاعى . وما لجأ إليه الفارس من

ارتداء الزرديات لم يجد نفعاً عند استخدام الأسلحة النارية فى القرن الخامس عشر .

ففى أواخر القرن الثالث عشر لم تعد القلعة عبارة عن مجرد برج قائم منفرد يحيط به سور بل أضحت بناء مكتملا به مجموعه من الأبراج المستديرة تسيطر على كل أجزاء البناء وتنقسم إلى وحدات يسهل الدفاع عن كل وحدة منفصلة عن الأخرى ، هذه القلعة لم يتيسر الاستيلاء عليها إلا بفرض حصار طويل ومنع المؤن عن المرابطين بها فلا يستسلمون إلا خوفاً من الهلاك جوعاً .

على أن الخنادق والأسوار لم تعد لها أهمية فى القرن الخامس عشر حينما تعرضت لقذائف المدفعية ومنذئذ صارت القلعة مجرد مقر للملك لا معقلا يحتمى به صاحبه ومن الواضح أن وضع الفارس ومكانته تغير بما جرى من تطور فى النظم الحربية إذ فقد ما كان له من تفوق حربى وسياسى . على أن الأرستقراطية الإقطاعية على الرغم من أنها فقدت قوتها الحقيقية ظلت تتباهى بتقاليدها فى الفروسية . فطوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر إزداد الشغف بالمنازلات وبالأوسمة وبكل ما يتعلق بطبقة النبلاء من مظاهر التشريف وينعكس ذلك فى الآداب العاطفية والروائية السائدة وقتذاك ، فأخذ ملك فرنسا فيليب السادس ينافس ادوارد الثالث ملك انجلترا فى تنظيم المواكب والاحتفالات وإنشاء طوائف من الفرسان وفى إثارة الحروب لأتفه الأسباب على أن الفروسية الحقيقية لم تلبث أن أصبحت جوفاء لا أهمية لها مثلها فى ذلك مثل القلعة والترس والخدمة العسكرية .

ولم تعد الضيعة إلا مجرد ذكرى فى أقاليم الغرب التى ازدادت تقدماً ورقياً ومنذ أن ظهر بالمدن طبقة التجار وازداد الطلب على المؤن والمواد الخام وإذ أدى هذا الطلب إلى زيادة التحسن فى الوسائل التى يجرى بها بيع

المنتجات وتوزيعها نزعت الزراعة إلى أن تعتبر عملية مثمرة فقامت قرى جديدة نتيجة بذل شروط مغرية للنزلاء وترتب على نجاح هذه التدابير أن لجأ كثير من الملاك إلى إعادة تنظيم قراهم بتحويل خدمات الفلاحة إلى إيجارات نقدية واختفى بذلك نظام الضياع فى أقاليم انجلترا وفرنسا فى القرن السادس عشر ، واختفى أيضاً ما يرتبط بهذا النظام من العبودية ؟

د . أحمد ابراهيم الشعراوى

الاسكندرية — سبتمبر ١٩٧٠ م

رجب ١٣٩٠ هـ



مصـــادر البحث

العربية :

السيد الباز العرينى :

— دراسات فى تاريخ العصور الوسطى :

١ — الإقطاع فى الشرق الأوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر .

٢ — الإقطاع الحربى عند الصليبيين بمملكة بيت المقدس فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى .

٣ — الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك .

(مقالات مجموعة فى مجلد واحد طبع بالقاهرة)

— نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين بمملكة بيت المقدس فى القرن الثانى عشر م .

(مقال فى مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة المجلد ٢٠ العدد الثانى ـ ديسمبر ٥٨)

— الحضارة والنظم الأوربية فى العصور الوسطى القسم الأول ـ القاهرة ٦٣

سعيد عبد الفتاح عاشور :

— أوربا العصور الوسطى — القاهرة ١٩٥٧ م :

فشر (هـ . ا . ل) :

— تاريخ أوربا العصور الوسطى — ترجمة : محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العرينى — جزءان — القاهرة ١٩٥٧ .

كارلس — ديفز (هـ . و) :

— شارلمان : ترجمة : السيد الباز العرينى — القاهرة ١٩٥٩ .

كوبلاند ، فينو جرادوف :

الإقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا — ترجمة : محمد مصطفى زيادة الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٨ .

الأجنبية :

ABDY; J.T.
— Feudalism. Its Rise, Progress and Consequences. London, 1890.

ADAMS.
— Feudalism (Ency. Brit.).

BLEYE ; Pedro Aguado.
— Manual de Historia de España, T. I, Madrid, 1947.

CALMETTE;
— La societé Féodale, 2ed. Paris, 1927.

DICCIONARIO DE HISTORIA DE ESPANA, 2 T. Madrid 1952.

DOW; E.W.
— The Feudal Régime, N.Y. 1902.

GANSHOF ; F.L.
— Feudalism, London, 1952.

MARC BLOCH.
— Feudal society, London, 1961.

PAINTER; S.
— Medieval society, N.Y. 1955.

PEREZ DE URBEL, Fray Justo.
— Historia del condado de Castilla, 3 Tomos, Madrid, 1549.

PIDAL; Ramon Menendez.
— Historia de España, Trade Introduction por Emilio Garcia Gomez, T. IV and V, Madrid, 1957.

SEIGNOBOS; C.
— Le régime féodale en Bourgogne jusqu'en 1360, Paris, 1882.

STEPHENSON ; C.
— Medieval Feudalism, N.Y., 1942.

WERGELAND ; Agnes M.
— Slavery in Germanic Society During The Middle Ages, Chicago, 1916.

مطبعة العالمية ١٢، ١٧ ش ضريح سعد بالقاهرة